﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح



لا يُصلِحُ آخِرَ هذهِ الأُمَّة إلاّ ما أَصْلَحَ أوَّلَها

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة السادسة ـ العدد الواحد والثلاثون: جمادى الأولى/جمادى الآخرة 1433هـ الموافق لـ ماي/جوان 2012م



لا تتبعوا عورات المسلمين



المنهجية في طلب العلم

د. محمد بن هادي المدخلي



تبرئة حسان بن ثابت رضي الله عنه من صفة الجبن

خالد حمودة



دور العلماء المالكية في تقرير الاجتهاد

د. عبد المجيد جمعة



ذكرياتي مع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله

د. رضا بوشامة

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 2006.3623 ISSN: 1112.6825

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ الله فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [سُورَةُ آل عِمْرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَاب].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.





ثبات الأصول

مدير المجلة

إنَّ سلامة منهج أهل السُّنَّة والجماعة وحسن طريقتهم في تميُّزهم عن سائر الفرق والطَّوائف تكمن في أنَّهم يستمدُّون دينَهم من معين واحد وهو مشكاة الوحي، فلم يخالفوا الكتابَ ولم يفارقوا السُّنَّة، ولم ينطقوا بما يناقُضهما أو يضادُّهما، بل يسيرونَ مع السُّنَّة حيث سارت، ويدورون معَها حيثُ دارت، ويحكِّمُونها في جميع أمورِهم وشُؤونِهم، فاستقامَت أصولهم وفروعهم في العِلم والعَمل؛ بخلاف مَن زاغَ عن منهجهم وطريقتهم من أهل البدع والأهواء منَ المتفلسفَة والمتكلِّمين والمتصوِّفة ونحوهم الَّذين أصَّلوا أصولا محدَثةً، وقعَّدوا قواعدَ باطلةً جعلوها أساسًا لبنائهم، وسمَّوها قواطع عقليَّة، وسمَّوا أدلَّتها براهين يقينيَّةً؛ فنتَج عنها فروعٌ هي من أبطل الفُروع، ولوازمُ هي من أفسَد اللَّوازم، كتأويل أسماء الله وصفاته، وتعطيلها، وكان بناؤهم الَّذي ارتفَع على تلك الأصول من أوهى الأبنية وأضعَفها؛ وناقضُوا المعقُول والمنقُول، ولَزِمَهم ردُّ النُّصوص الصَّريحة الصَّحيحة، فردُّوا ما لا يجوزُ لهم ردُّه، وحرَّفوا الكَلم عن مواضعه بتأويلات لا يسعفُها لغةٌ ولا شرعٌ.

قال ابنُ القيِّم: «وكلُّ مَن أصَّلَ أصلًا لم يؤصِّلْهُ الله ورسولُه قادَهُ قسرًا إلى ردِّ السُّنَّة وتحريفها عن مواضعها؛ فلذلكَ لم يؤصِّل حزبُ الله ورسوله أصلًا غيرَ ما جاءَ به الرَّسولُ، فهو أصلُهم الَّذي عليه يعوِّلون وجنَّتُهم الَّتي إليها يَرجعُون» [«شفاء العَليل» (ص: 14)].

فانحراف الطَّوائف والفرق ـ قديمًا وحديثًا ـ عن صراط الله المستقيم، سببُه الرَّئيس هو اعتماد أصول ليس عليها أثارةٌ من علم الكتاب والسُّنَّة، كتقديم العقل على النَّقل عند التَّعارض، وكتقديم الواقع على الشَّرع تحت مسمَّى فقه الواقع أو مصلحة الدَّعوة، أو كتقديم المصلحَة على النَّصِّ الصَّريح تحتَ شعار روح الشَّريعة أو فقه التَّيسير، أو كتأخير أمر الدَّعوة إلى التَّوحيد ومنابذة مظاهر الشِّرك والتَّنديد حفاظًا على مصلحة التَّآلف، ونحو ذلك ممَّا صيَّروه أصلا وليس بأصل.

وعليه فإن كلَّ من نهج هذا الطَّريق في التَّأصيل كثر منه الاضطراب والتَّناقض، وتعظم الهوة بينه وبين السُّنَّة كلمَّا استحدث أصلا جديدًا، وقبض قبضةً من أثر المخالفة، فيسكتُ عمَّا لا يحسن السُّكوت عنه، ويعجَلُ إلى ما له فيه أناةٌ، فيقدِّم ما حقُّه التَّأخير، ويؤخِّر ما حقُّه التَّقديم، فيقع في مزلَّة أقدام، ومضلَّة أفهام، ولا عصمةَ إلَّا في اتِّباع السُّنَّة، ولا أصلَ إلَّا ما جاءت به السُّنَّة.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلحُ آخرَ هذهِ الأُمّةِ إلاّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَها

مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

دار الفضيلة

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي باحة (03)، رقم (28) الليدو ـ المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:
(021) 51 94 63
(النقال) (0559) 06 99 92

التوزيع (جوال):
(0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com

في هذا العدد

الافتتاحية: ثبات الأصول/ مدير المجلة 1

الطليعة: لا تتبعوا عورات المسلمين/ التحرير............ 4

في رحاب القرآن: من فضائل وخصائص سورة البقرة والحث على تعلمها

/فريد نمار 6

من مشكاة السنة: تبرئة الصحابي الجليل حسان ابن ثابت رضي الله عنه من صفة الجبن

/خالد حمودة 10

التوحيد الخالص: تأملات ووقفات مع قصة الشرك الأول

/عبد الله بوزنون 14

بحوث ودراسات: دور علماء المالكية في تقرير الاجتهاد

/د.عبد المجيد جمعة 18

مسائل منهجية: المنهجية في طلب العلم

/د.محمد بن هادي المدخلي 30

تزكية وآداب: أسباب الانتكاسة

/ ياسين شوشار 35

فتاوى شرعية: أ. د. محمد علي فركوس 42

سير الأعلام: ذكرياتي مع الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله

/د.رضا بوشامة 46

أخبار التراث: رسالة في شرح حديث دعاء الهم والحزن لابن تيمية رحمه الله

/عمار تمالت 49

اللغة والأدب: لقد باع صاحبي مكتبته!

/إبراهيم بن حليمة 53

قضايا تربوية: الأسس الشرعية لتربية الأولاد

/ فريد عزوق 56

ألفاظ ومفاهيم في الميزان: النبراس في تصحيح كلام الناس

/عمر الحاج مسعود 58

الفوائد والنوادر: التحرير.............................. 62

مشاركات القراء: 64

من مشكاة السنة

تبرئة الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه من صفة الجبن




بحوث ودراسات

دور العلماء المالكية في تقرير الاجتهاد

العدد السابق

الإصلاح

حفظ الوقت

حوار مع... الشيخ عبيد بن عبد الله الجابري حفظه الله تعالى

معالم هادية لقراءة كتب التفسير

المسلمات الشرعية زمن الفتن

حق الله على العباد

مسائل منهجية



المنهجية في طلب العلم

سير الأعلام

ذكرياتي مع الشيخ.. محمد ناصر الدين الألباني



قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.



لا تتبعوا عورات المسلمين

التحرير

من الظَّواهر الغريبة الَّتي غزت مجتمع أهل الإسلام ففضحت ستره وكشفت عيبه ونالت من شرف أفراده وجماعاتهم، - والَّتي تولَّى كبرها مالكو ومحرِّرو الصُّحف والجرائد الخاصَّة هداهم الله - نشرُ أخبار وحكاية وقائع وتسجيل أحداث تمسُّ حياة أناس من رجال ونساء، وشباب وشيوخ، وأُسر وأرحام، جرَّهم ضعف الإيمان والجهل والغفلة والبعد عن الشَّرع إلى ارتكاب جرائم وجنايات، والوقوع في مكايد وخيانات؛ من قتل أنفس وتدنيس أعراض وسرقة أموال وخطف أبرياء وما إلى ذلك، بحيث صار يخصَّص لهذه الأخبار أركان وأعمدة تسع صفحة بأكملها أو أكثر، تُبرَّزُ بعناوين مثيرة، تخطف عين القارئ عند أوَّل نظرة يستهلُّ بها تصفّح مقروئه اليومي، وربَّما أخذت منه وقتًا طويلاً وتركيزًا في قراءتها، حتَّى كأنَّه يشاهد فيلمًا بوليسيًّا أو دراما اجتماعيَّة تزعج أحداثهما طبعه، وتعكِّر مزاجه، وتقلق راحته.

ومثل هذه الأخبار وإن كانت مطابقة في الغالب لما يحدث من مآس ومنكرات في واقعنا المرير؛ لأنَّها تصدرُ من أناس فقدوا كلَّ شعور وضيَّعوا كلَّ دين وأفلسوا من كلِّ فضيلة وخلق، إلاَّ أنه ينبغي مراعاة أهل الإسلام بالسَّتر عليهم والغضِّ عن معايبهم والتَّغافل عمَّا يقع بينهم من انتهاكات وفضائح وتجاوزات، وترك التَّشهير بهم في المجالس وعلى صفحات الصُّحف والجرائد؛ لأنَّ هذه الإذاعة والتَّشهير لا يفيد في حلِّ المشكلات بل يعقِّدها، ويعطي صورة قاتمة ومظلمة عن أحوال أهل الإسلام، تُفرح أعداءَ الله وأعداء الأمَّة وتسرُّهم، وتشجِّع المنحرفين والشُّذَّاذ على سلوك هذه الأفعال الدَّنيئة ومجاراتها.

إنَّ مسالك العباد وتقلُّباتهم يجب أن تكون محكومة بدين الله، فمن عمل بالإسلام عُرف به، ومن عمل للإسلام دعا إليه، ولا إسلام بغير عمل، ولا استقامة في دروب الحياة بلا تمسُّك والتزام.

والكلام في النَّاس وفي أحوال النَّاس وقضاياهم ونشر ما يجوز من أخبارهم وأحوالهم وما لا يجوز، ينبغي أن يضبط بضوابط شرعيَّة تقوم على رعاية مصالح النَّاس ودرء مفاسدهم، وتكثير منابع الخير فيهم، وتجفيف موارد الشَّرِّ المحيطة بهم ما أمكن السَّبيل إلى ذلك؛ لأنَّ أهل الإسلام حيثما كانوا وإن خَفَتَ فيهم الإيمان وضعف وغُيِّبَتْ من ساحتهم مظاهر العفَّة والحياء والغيرة؛ فإنَّه لا يتصوَّر أن يكون بينهم من يسرُّه خبر اعتداء جنسيٍّ مارسه أبٌ على ابنته أو أخ على أخته، أو يستهويه مشهد قتل رجل لزوجته والتَّمثيل بها وقطع أطراف جسدها بسبب خيانة أو وشاية، أو يرضيه أن يكون شاهد عيان في مسرح جريمة يتفنَّن ممارسو الاعتداء في التَّنكيل والتَّمثيل بجُثث المجنيِّ عليهم، وما إلى ذلك من غرائب الأحداث والوقائع الَّتي يسعى ناشرو هذه الأخبار في إبلاغها وإيصالها إلى القرَّاء باسم التَّغطية الصُّحفيَّة، أو السَّبق في صناعة الأحداث ونقل الأخبار، أو دعوى إطِّلاع الرَّأي العام على واقع المجتمع.

إنَّ الحزم في معالجة هذه القضايا الحسَّاسة المتعلِّقة بحياة النَّاس الخاصَّة وما يُداخلُها من أسرار وغموض، يجب أن يكون معلنًا، يتَّسم بالزَّجر والتَّشديد على كلِّ من يُسْهم في بثِّ مثل هذه الأخبار وترويجها، والإعانة على مدِّ

المعلومات الَّتي تجعلها تتصدَّر الأحداث ما لم تدعُ الحاجة إلى ذلك، منعًا لكلِّ تصدُّع وتفكُّك ينال مجتمع أهل الإسلام ويعرضه للخيبة والإفلاس في القيم والمقوِّمات، شأن المجتمعات الكافرة اليوم السَّابحة في رذائل الأخلاق وزبالة الأفكار وزيف المعتقدات وفقدان الأمل وغياب الحلول.

إنَّ كلَّ من يحبُّ أن تشيع الفاحشة في الَّذين آمنوا هو على خطر عظيم ومرتكب لجُرم جسيم؛ لأنَّه مُخاطر بدينه ومتجاسر على إخوانه بالتَّطاول والاعتداء، حريص على تفكيك لحمتهم وتشتيت شملهم، والنَّبيُّ ﷺ يقول: «مَثَلُ المُؤْمنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى» [مسلم (2586)].

فستر عيوب النَّفس وعيوب النَّاس فضيلة من فضائل الدِّين ومن شيم النُّفوس الأبيَّة، فكما أن كلَّ إنسان لا يريد أن تُنشر معايبه بين النَّاس، فكذلك ينبغي أن لا يرضى ذلك لأخيه المسلم؛ لأنَّ منَ الايمان أن تحبَّ لغيرك ما تحبُّ لنفسك، فمن رأى عيبًا أو تقصيرًا في أخيه المسلم أن يدعو له بالاستقامة والصَّلاح، وأن ينصحه سرًّا لا جهرًا حتَّى لا يخدش كرامته ويلحق به العار والهوان، إذ الجزاء من جنس العمل وكما تدين تُدان، فـ«مَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»، كما قال النَّبيُّ ﷺ.

وروى أبو داود (4880) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ لَا تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يتَّبع الله عورته، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ».

وفي «صحيح مسلم» (2590) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لَا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فبقدر سترك لنفسك ولغيرك ـ أيُّها المسلم ـ بقدر ما ينالك ستر الله في الدُّنيا والآخرة وبقدر تجاوزك وتغاضيك عن هفوات الآخرين وزلَّاتهم بقدر ما يتخلَّى النَّاس عن إيذائك والاشتغال بعيوبك، قال مالك رحمه الله: «أدركت بهذه البلدة ـ يعني المدينة ـ أقوامًا لم يكن لهم عيوب، فعابوا النَّاس فصارت لهم عيوب، وأدركت بهذه البلدة أقواما كانت لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب النَّاس، فَنُسِيَتْ عيوبهم» [الفوائد لابن منده (ص166)].

إنَّ القول لدى الله لا يبدَّل فمن شغل وقته بعيوب النَّاس والتفكُّه بأعراضهم والانشغال بمثالبهم لم يسلم من أذيَّة النَّاس له قولاً أو فعلاً، حالاً أو مآلاً.

وهذا فقه في الشَّريعة يجب أن يُعلم، ومسلك من مسالكها القويمة يجب أن يُعمل به في التَّعامل مع نوعي النَّاس المجاهرين منهم والمستورين، فمن كان منهم مستورًا لا يُعرف بشيء من المعاصي والعيوب، أو هو قليل الوقوع فيها، فإذا وقعت منه هفوة أو زلَّة فإنَّه لا يجوز هتكها ولا كشفها ولا التَّحدُّث بها؛ لأنَّ ذلك غيبة محرَّمة، وهذا الَّذي وردت فيه النُّصوص كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: 19].

فقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ أي يريدون، وعبَّر بالحبِّ إشارة إلى أنَّه لا يرتكب هذا مع شناعته إلاَّ محبٌّ له، ولا يحبُّه إلاَّ بعيد عن الاستقامة، فكلُّ من شارك في نشر عورات المسلمين وعيوبهم، أو دلَّ عليها، أو أراد لها الذُّيوع والتَّسميع، ناله ـ ولا شكَّ ـ نصيب من عذاب في الدُّنيا وآخر في الآخرة.

وثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أَقِيلُوا ذَوِي الهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الحُدُودَ» [أبو داود (4375)]، و«أقيلوا»: اعفوا وتجاوزوا، و«ذوو الهيئات»: الَّذين لا يُعرفون بين النَّاس بالشَّرِّ، وقيل: من يندم على الذَّنب ويتوب منه، وقيل: الَّذين يعصون أوَّل مرَّة، ففي الحديث ندب النَّاس إلى ستر المسلمين الَّذين لا يعرف منهم إصرار على المعاصي أو مجاهرة بها.

وأمَّا من كان مشتهرًا بالمعاصي معلنًا بها، لا يبالي بما ارتكب منها ولا بما قيل له؛ فهذا هو الفاجر المعلن، وليس له غيبة كما نصَّ على ذلك الحسن البصري وغيره.

ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره والإخبار عن حاله ليحذره النَّاس أو لتقام عليه الحدود[1]، أو يطبَّق في حقِّه التَّعزير، لكن يبقى الأمر في حدود ما تدعو له المصلحة العامَّة أو الخاصَّة، وأمَّا الاهتمام والعناية بنشر التَّفاصيل الَّتي تقزِّز النُّفوس وتخدش في الحياء وتمسُّ بالكرامة فلا سبيل إلى تسويغها وتجويزها تحت أيِّ غطاء وبأيَّة ذريعة.

والله تعالى نسأل أن يحفظ على المسلمين وحدتهم، وأن يستر عليهم عيوبهم وعوراتهم وأن لا يشمت بهم الأعداء والحاسدين.

(1) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (292/2 ومابعدها).



من فضائل وخصائص

سُورَةُ البَقَرَةِ

والحثُّ على تعلُّمها

فريد نمار
إمام خطيب ـ الإمارات العربية المتحدة

إنَّ القرآن هو النَّبأ العظيم، والذِّكر الحكيم، والكتاب المبين الفارقُ بين الهدى والضَّلال، والغَيِّ والرَّشاد، والشَّكِّ واليقين.

أنزله سبحانه لنقرأه تدبُّرًا ونتأمَّله تبصُّرًا، ونسعد به تذكُّرًا، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه، ونصدِّق به ونجتهد في إقامة أوامره واجتناب نواهيه، ونُحلَّ حلاله ونحرِّم حرامه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [سُورَةُ صٓ].

وهو كتابه الدَّالُّ عليه لمن أراد معرفته، وطريقه الموصلة لسالكها إليه، ونوره المبين الَّذي أشرقت له الظُّلمات، ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وهو الرَّحمة المهداة والنِّعمة المسداة الَّتي بها صلاح جميع المخلوقات، وهو السَّبب الواصل بين الله وبين عباده إذا انقطعت الأسباب، وهو الصِّراط المستقيم الَّذي لا تميل به الآراء، والذِّكر الحكيم الَّذي لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تفنى عجائبه، ولا تقلع سحائبه، ولا تنقضي آياته، ولا تختلف دلالاته، مَن قال به صدَق، ومَن عمل به أُجِر، ومَن حكَم به عدل، ومَن دعا إليه هُدي إلى صراط مستَقيم، ومَن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله، قال ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما: «تكفَّل الله لمن قرأ القُرآن وعمل به أن لا يضلَّ في الدُّنيا ولا يشقَى في الآخرة»(1)، ثمَّ تلا قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [سُورَةُ طه].

وهو وحده الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصلُ لهم إلى سبيل الهدى والرَّشاد.

وهذا الوصف عامٌّ شاملٌ لجميع القُرآن، وقد خصَّ سبحانه بعض سُوَر القرآن بمزيد فضل وعلوِّ شأن، منها سورة البقرة الَّتي هي سَنَام القرآن، ففي «جامع التِّرمذي»(2) أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وإِنَّ سَنَامَ القُرْآنِ سُورَةُ البَقَرَةِ»، وسنام كلِّ شيء أعلاه(3).

وهذه السُّورة فضلها عظيم وثوابها جسيم:

▪ عن النَّوَّاس بن سمعان قال: سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «يُؤْتَى بالقُرْآنِ يَوْمَ القيَامَة وَأَهْله الَّذينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ به تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ...»(4) الحديث.

والمعنى: أنَّ هاتين السُّورتين تكونان في المقدِّمة والطَّليعة.

▪ وعن أُسَيْد بن حُضَير أنَّه قال: يا رسول الله! بينما أنا أقرأ اللَّيلة سورة البقرة إذ سمعتُ وَجْبَةً من خَلفي فظننتُ أنَّ فرسي انطلق؛ فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ يا أبا عَتيك»، فالتفتُّ فإذا مثل المصباح مُدَلًّى بين السَّماء والأرض ورسول الله ﷺ يقول: «اقْرَأْ يَا أبَا عَتيك»، فقال: يا رسول الله! فما استطعت أن أمضي؛ فقال رسول الله ﷺ: «تِلْكَ المَلائكَةُ نَزَلَتْ لقرَاءَة سُورَة البَقَرَة، أَمَا إِنَّكَ لَوْ مَضَيْتَ لَرَأَيْتَ العَجَائِبَ» رواه ابن حبان(5)، وهو صحيح.

(1) انظر: «تفسير الطَّبري» (191/16)، «مصنَّف ابن أبي شيبة» (372/13).
(2) برقم (2878)، وحسَّنه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (1461).
(3) «النِّهاية» لابن الأثير (409/2).
(4) رواه مسلم (805).
(5) برقم (979).

وللطَّبراني في «الأوسط» (180): «تلكَ السَّكينةُ دنَت لصَوتكَ، ولو قَرأتَ أَصبحَ النَّاس ينظرون إليها».

والسَّكينة: «مأخوذةٌ من السُّكون، وهو الوقار والطّمأنينة، وهي ها هنا اسم للملائكة؛ كما فسَّرها في الرِّواية الأخرى، وسَمَّاهم بذلك لشدَّة وقارهم وسكونهم؛ تعظيمًا لقراءة هذه السُّورة»(6).

▪ ▪ ▪

▪ ومن فضائل هذه السُّورة أنَّها مطردة للشَّيطان؛ قال النَّبيُّ ﷺ: «لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»(7).

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما من بيت يقرأ فيه سورة البقرة إلاَّ خرج منه الشَّيطان»(8).

▪ ▪ ▪

▪ ومن فضائلها أنَّها اشتملت على أعظم آية في القرآن؛ فعن أبيٍّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ سأله: «أيُّ آيَةٍ في كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟» قال: اللهُ ورسوله أعلم؛ فردَّدها مرارًا، ثمَّ قال أُبيٌّ: آية الكرسي، قال: «لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبَا المُنْذر، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه إِنَّ لها لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تقدِّس الملِكَ عِنْدَ سَاقِ العَرْشِ»(9).

وقال ﷺ: «مَنْ قَرَأَ آيَةَ الكُرْسِي في دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ لَمْ يَحُلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ الجَنَّةِ إِلاَّ المَوْتُ»(10).

وفي «صحيح البخاري» (2311): «أَنَّ مَنْ قَرَأَهَا إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَإِنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرُبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ».

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه: «ما أرى رجلاً ولد في الإسلام...، يبيت أبدًا حتَّى يقرأ هذه الآية»(11).

قال ابن بطَّال: «إذا كان من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه، ومن قرأ آية الكرسي كان عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتَّى يصبح، فما ظنُّك بمن قرأها كلَّها من كفاية الله له، وحرزه وحمايته من الشَّيطان وغيره، وعظيم ما يدَّخر له من ثوابها»(12).

▪ ▪ ▪

▪ ومن فضائل سورة البقرة: اشتمالها على اسم الله الأعظم الَّذي إذا سُئل به أعطى وإذا دعي به أجاب، روى ابن ماجه (3856)، والحاكم (684/1) بسند حسن عن أبي أمامة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «اسْمُ اللهِ الأَعْظَمِ الَّذي إِذَا دُعِيَ بِه أَجَابَ في سُوَرٍ ثلاثٍ: في البَقَرَةِ، وَآلِ عِمْرَانَ، وَطَه».

قال راويه القاسمُ أبو عبد الرَّحمن: «فالتَمستُ في البقرة، فإذا هو في آية الكُرسي ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255]، وفي آل عمران فاتحتُها: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران]، وفي طه: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: 111]»(13).

▪ ▪ ▪

▪ **ومن فضائل سُورة البَقرة:** اشتمالها على آخر آية نزلت من القُرآن، وهي قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة]، قيل: إنَّ هذه الآية نزلت قبل موت النَّبيِّ ﷺ ببضع ليال ثمَّ لم ينزل بعدَها شيء(14).

قال السُّيوطي: «وانظر براعة آخر آية نزلت وهي قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ وما فيها من الإشعار بالآخريَّة المستلزمة للوفَاة»(15).

▪ ▪ ▪

▪ **ومن فضائل سورة البقرة:** أنَّها يُقال لها: «فُسطاط القرآن»، والفسطاط ما يحيط بالمكان، سمِّيت بذلك لعظمها وبهائها، ولإحاطتها بأحكام كثيرة.

قال بعض العلماء: «فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف خبر»(16).

قال شيخ الإسلام: «فتضمَّنت هذه السُّورة الواحدة جميع ما يحتاج النَّاس إليه في الدِّين وأصوله وفروعه»(17).

افتتحها سبحانه بالتَّنويه بعلوِّ منزلة القرآن وعظمة تعاليمه بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾، أي «ذلك الكتاب العجيبُ الشَّأنِ، البالغُ أقصى مراتبِ الكمال»(18).

ثمَّ «ذكر أقسام الخلق: المؤمنين والكفَّار والمنافقين، وذكر أوصافهم، وأعمالهم.

وذكر الأدلَّة الدَّالَّة على إثبات الخالق سبحانه وتعالى، وعلى وحدانيَّته، وذكر نعمه وآلائه وإثبات نبوَّة رسوله ﷺ، وتقرير المعاد، وذكر الجنَّة والنَّار، وما فيهما من النَّعيم والعذاب.

ثمَّ ذكر تخليق العالم العلوي والسُّفلي.

(6) انظر: «المفهم» للقُرطبي (69/7).
(7) رواه مسلم (780).
(8) رواه الدَّارمي (3418)، وفي إسناده لين.
(9) رواه مسلم (810)، وأحمد (21278) واللَّفظ له.
(10) رواه النَّسائي في «السُّنن الكبرى» (9848)، وابن السُّنِّي (124)، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (972).
(11) رواه الطَّبراني في «الدُّعاء» (276)، وسنده ضعيف.
(12) «شرح البخاري» (247/10).
(13) انظر «الصحيحة» (382/2).
(14) انظر: «تفسير القرطبي» (375/3).
(15) «الإتقان» (287/2).
(16) «تفسير القرطبي» (152/1) بتصرُّف.
(17) «الجواب الصَّحيح» (64/5).
(18) «تفسير أبي السُّعود» (24/1).

ثمَّ ذكر خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنعامه عليه بالتَّعليم، وإسجاد ملائكته له، وإدخاله الجنَّة، ثمَّ ذكر محنته مع إبليس، وذكر حسن عاقبة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثمَّ ذكر المناظرة مع أهل الكتاب من اليهود وتوبيخهم على كفرهم وعنادهم، ثمَّ ذكر النَّصارى والرَّدّ عليهم، وتقرير عبوديَّة المسيح، ثم تقرير النسخ والحكمة في وقوعه ثم بناء البيت الحرام وتقرير تعظيمه وذكر بانيه والثناء عليه، ثم تقرير الحنيفية ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وتسفيه من رغب عنها ووصية بنيه بها»[19].

«ثمَّ ذكر ما يتعلَّق بالبيت من اتِّخاذه قبلة، ومن تعظيم شعائر الله الَّتي عنده كالصَّفا والمروة.

ثمَّ ذكر التَّوحيد، والحلال والحرام والمطاعم للنَّاس عمومًا، ثمَّ للَّذين آمنوا خصوصًا.

ثمَّ ذكر ما يتعلَّق بالقتل من القصاص، وبالموت من الوصيَّة.

ثمَّ ذكر شرائع الدِّين؛ فذكر صيام شهر رمضان، وما يكون فيه من الاعتكاف، ثمَّ ذكر ما يتَّصل بشهر الصِّيام وهو أشهر الحجِّ فذكر الحجَّ، وذكر حكم القتال عمومًا وخصوصًا في البلد الحرام.

ولمَّا ذكر الصَّلاة والصِّيام والحجَّ والجهاد والصَّدقة ذكر بعد ذلك الحلال والحرام في الفروج، فذكر أحكام وطء النِّساء، والحُيَّض، والإيلاء منهنَّ، والطَّلاق لهنَّ، واختلاعهنَّ، وذكر حكم الأولاد وإرضاعهم، واعتداد النِّساء، وخطبتهنَّ في العدَّة، وطلاقهنَّ قبل الدُّخول وبعده.

ثمَّ ذكر الصَّلوات والمحافظة عليهنَّ.

ثمَّ قرَّر المعاد وما يدلُّ عليه من إحياء الموتى في الدُّنيا مرَّة بعد مرة»[20].

وهكذا إلى أن ذكر سبحانه أحكام المعاملات الماليَّة فأوجب فيها العدل، وحرَّم الظُّلم، وندب إلى الإحسان والفضل، فالعدل كالبيع، وإنظار المعسر إلى ميسرة، والظُّلم كالرِّبا ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: 275]، والفضل والإحسان كالصدقة ﴿وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٨٠﴾ [البقرة].

ثمَّ ذكر آية المداينة وفيها أكَّد على أهميَّة توثيق الدُّيون بأحد أمرين: إمَّا بكتابتها والإشهاد عليها، أو بالرَّهن.

وختم هذه الآية الَّتي تعدُّ أطول آي القرآن بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾ [البقرة]؛ تنويهًا بشأن التَّقوى، وقد أفاض سبحانه في هذه السُّورة المباركة العظيمة في الحديث عن التَّقوى، وبيان صفات المتَّقين، والإشادة بذكرهم والتَّنويه بشأنهم، والتَّعريف بسبيلهم لتُتَّبع، «حتَّى إنَّ كلَّ مقطع من السُّورة يختم غالبًا بالتَّنويه بالتَّقوى، فلمَّا أمر بتوحيده ختم ذلك بالتَّقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة]، وختم آيات الصِّيام بالتَّقوى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة]، وختم آيات الحجِّ بالتَّقوى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ٢٠٣﴾، وختم آيات القصاص بالتَّقوى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة]، وختم آيات الطَّلاق بالتَّقوى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ٢٤١﴾ [البقرة]، وختم آيات تحريم الرِّبا بالتَّقوى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وختم آية المداينة كما تقدَّم قريبًا بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾»[21].

وكفى بهذا فضلاً للتَّقوى، والتَّقوى هي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين، الَّتي لا يقبل الله غيرها، ولا يرحم إلاَّ أهلها، ولا يثيب إلاَّ عليها.

▣ ▣ ▣

▣ **ومن فضائل سورة البقرة:** أنَّها ختمت بآيات جوامع مقرّرة لجميع مضمون السُّورة، قال تبارك وتعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة].

عن ابن عبَّاس قال: «بينما جبريل قاعد عند النَّبيِّ ﷺ، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السَّماء فُتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى

(19) «مجموع الفتاوى» (14/129. 130).

(20) «الجواب الصَّحيح» (5/63. 64).

(21) انظر: «من كلِّ سورة فائدة» لعبد المالك رمضاني (ص37. 38).

الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»[22].

«أي: أعطيت ما اشتملت عليه تلك الجملة من المسألة: كقوله: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة]، وكقوله: ﴿غُفْرَانَكَ﴾ [البقرة: 285]، وكقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ﴾ [البقرة: 286]، ونظائر ذلك»[23].

وهي «سبع جمل دعائيَّة، ما يدعو بها مؤمن موقنًا إلاَّ استجاب الله له، وهذه ميزة وفضل عظيم»[24].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ بالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[25]، أي: كفتاه كلَّ شرٍّ ومكروه تلك الليلة.

فافتتح السُّورة بالإيمان بالكتب والرُّسل في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: 4]، ووسطها بالإيمان بالكتب والرُّسل في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: 177]، وختمها بالإيمان بالكتب والرُّسل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [سورة البقرة].

فإنَّ الإيمان بالكتب والرُّسل هو عمود الإيمان وقاعدته وجماعه.

فتضمَّنت هذه السُّورة ـ كما تقدَّم ـ جميع ما يحتاج النَّاس إليه في الدِّين وأصوله وفروعه[26].

(22) رواه مسلم (806).
(23) «مرعاة المفاتيح» (7/197).
(24) «شرح رياض الصَّالحين» لابن عثيمين (4/704).
(25) البخاري (5009)، ومسلم (808).
(26) «الجواب الصَّحيح» (5/64) بتصرُّف.

ولـمَّا كانت سورة البقرة بهذه المنزلة العليَّة؛ رغَّب النَّبيُّ ﷺ أمَّته في حفظها وتعلُّمها.

روى مسلم (804) وأحمد (22157) واللَّفظ له عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ:

«تَعَلَّمُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا البَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ[27]، فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ[28]، أو كأنَّهما فِرْقان[29] مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ[30]، يحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا[31]، تَعَلَّمُوا البَقَرَةَ فَإِنَّ تَعَلُّمَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ[32]».

وفي رواية عند أحمد (22950) بسند حسن:

«وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ (المتغيِّر اللَّون) فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ، الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لاَ يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا[33]، فَيَقُولاَنِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا، فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هَذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلاً».

(27) تثنية الزَّهراء، تأنيث أزهر، وهو المضيء الشَّديد الضَّوء أي النَّيِّرتين، سمِّيتا بذلك إمَّا لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من معانيهما. وإمَّا لما يترتَّب على قراءتهما من النُّور التَّامِّ يوم القيامة.
(28) الغمامة والغياية: كلُّ شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه، من سحابة وغيرها.
(29) قطيعان وجماعتان.
(30) مُصْطَفَّة.
(31) تقومان بحجَّة قارئهما وتجادلان عنه.
(32) والبطلة السَّحرة، أي: لا يمكنهم حفظها، وقيل: لا تستطيع النُّفوذ في قارئها، والله أعلم.

و«قرأ ابن عمر البقرة في ثمان سنين[34]».

قال ابن عبد البرِّ:

«إنَّه كان يتعلَّمها بأحكامها ومعانيها وأخبارها فلذلك طال مكثه فيها»[35].

وكان من حفظ سورة البقرة عُدَّ في الصَّحابة عظيمًا روى أحمد (12215) بسند صحيح عن أنس قال: «كان الرَّجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَدَّ فينا ـ يعني: عَظُمَ ـ».

وفي كتاب «الاستيعاب» (3/1337) لابن عبد البرِّ:

«ولبيد بن ربيعة... من المؤلفة قلوبهم وهو معدود في فحول الشعراء المجودين المطبوعين...، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما: يا أبا عقيل أنشدني شيئا من شعرك، فقال: ما كنت لأقول شعرا بعدما علَّمني الله البقرة وآل عمران، فزاده عمر في عطائه خمسمائة وكان ألفين».



(33) لا تقوم لهما الدُّنيا وما فيها.
(34) رواه مالك في «الموطَّأ» (238).
(35) «الاستذكار» (2/502).

تبرئة الصحابي الجليل حسان بن ثابت رضي الله عنه من صفة الجبن

خالد حمودة

إنَّ حسَّان بن ثابت رضي الله عنه هُوَ مَنْ هُوَ في قدم الإسلام[1] وصحبته رسولَ الله ﷺ ونصرته إيَّاه، فهو شاعر رسول الله ﷺ، وسيِّد شعراء المؤمنين، والمؤيَّد بروح القُدس من ربِّ العالمين[2]، حتَّى قال أبو غزيَّة: «لحسَّان بن ثابت مواضع: هو شاعر الأنصار، وشاعر اليمن، وشاعر أهل القرى، وأفضل ذلك كلّه: هو شاعر رسول الله ﷺ غير مدافع»[3].

هذا موضعه من الإسلام وأهله، ثمَّ إنَّه قد شاع عند كثير من أهل الأخبار ومنتحلي الأدب أنَّه رضي الله عنه كان جبانًا شديد الجبن، حتَّى ترامى الحال ببعضهم إلى أن جعله مثلاً مضروبًا لأهل هذه الخلَّة الذَّميمة، كقول بعض الجهلة معرِّضًا بجبن حسَّان وشجاعة ممدوحه:

وما الحروب ومثلي أن يشاهدها
وإنَّما أنا حسَّان وأنت علي

فاحتملتني الحميَّة لأبي الوليد رضي الله عنه ـ والحميَّة لله ورسوله محمَدَة ـ على أن جمعتُ ما يستند إليه من رماه بهذا الَّذي صانه الله منه هو وسائر أصحاب رسول الله ﷺ المنافحين عنه وعن شريعته بأنفسهم وأموالهم وألسنتهم وما أُوتوا، وبيَّنت ما عند أهل العلم في ردِّ ذلك ودحره.

فأقول:

(1) «طبقات ابن سعد» (322/4)، «تاريخ دمشق» (380/12).
(2) «سير أعلام النبلاء» (512/2)، وانظر: «صحيح البخاري» (453) ومسلم (2458).
(3) «تاريخ دمشق» (419/12)، و«تهذيب الكمال» (22/6).



أصل ما قيل في جُبنه من جهة الرِّواية ـ فيما وقفت عليه ـ خبران:

الخبر الأوَّل:

قال ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (413/12): أخبرنا أبو القاسم إسماعيل بن أحمد، وأبو بكر محمَّد بن الحسين، وأبو الدُّر ياقوت بن عبد الله قالوا: أنا أبو محمَّد عبد الله بن محمَّد الصَّريفيني: أنا محمَّد بن عبد الرَّحمن بن العبَّاس: أنا أحمد ابن سليمان الطُّوسي: نا الزُّبير بن بكار حدَّثني علي بن صالح عن جدِّي عبد الله بن مصعب أنَّه سمع حسَّانًا أنشد رسول الله ﷺ:

لقد غدوتُ أمام القوم مُنْتَطِقًا
بصارم مثل لون الملح قطَّاعِ
تحفزُ عني نجاد السَّيف سابغةٌ
فضفاضة مثل لون النِّهي بالقاع

قال: فضحك رسول الله ﷺ، فظنَّ هو أنَّه يضحك من ضعفه وجبنه.

وأورده المبرِّد في «الفاضل» (12ـ13) عن الرِّيَّاشي ولم يذكر إسناده، وفيه عنده: فظنَّ أنَّ تبسُّمه لما يسمع من وصفه، مع ما هو عليه من جبنه.

وعقَّب عليه المبرِّد بما تراه في محلِّه إن شاء الله.

وهذا الإسناد ضعيف لا يقوم بمثله خبر؛ لأنَّ عبد الله ابن مصعب هو ابن ثابت بن عبد الله بن الزُّبير أبو بكر الأسدي والد مصعب الزُّبيري، وهو مع كونه شريفًا غاية في الشَّرف ونباهة الذِّكر ـ وقد جمع له الرَّشيد بين إمرة المدينة واليمن، توفي (سنة 184) ـ إلاَّ أنَّه ضعيف في الحديث، ضعَّفه ابن معين وأبو حاتم[4].

(4) «تاريخ بغداد» (415/11 ـ 420)، و«ثقات ابن حبان» (56/7)، و«سير أعلام النبلاء» (517/8)، و«لسان الميزان» (15/6ـ16)، وانظر بسط أخباره وأحواله في «نسب الزُّبير» (124/1ـ156).

وعلي بن صالح الرَّاوي عنه هو المدني، قال في «التَّقريب»: «مستور».

والخبر مع ذلك معضل؛ فإنَّ بين عبد الله بن مصعب وبين حسَّان مفاوز تَنقطع فيها أعناق المطيّ، وقوله في الإسناد: «أنَّه سمع حسَّانًا» تخليط، الله أعلم ممَّن هو.

▣ ▣ ▣

▣ الخبر الثاني:

هو خبر الأُطم يوم الخندق، وهو أشهر الخبرين وأكثرهما دورانًا على الألسن، وله عدَّة طرق، وقفت منها على خمس:

□ الطَّريق الأوَّل: يرويه هشام بن عروة، واختلف عنه فيه على ثلاثة أوجه:

1 ـ قال يونس بن بكير عنه عن أبيه عن صفيَّة بنت عبد المطَّلب ـ قال عروة: وسمعتها تقول: أنا أوَّل امرأة قتلت رجلاً ـ: كنت في فارع ـ حصن حسَّان بن ثابت ـ، وكان حسَّان معنا في النِّساء والصِّبيان حين خندق النَّبيُّ ﷺ، قالت صفيَّة: فمرَّ بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، فقلت لحسَّان: إنَّ هذا اليهودي بالحصن كما ترى، ولا آمنه أن يدلَّ على عوراتنا، وقد شُغل عنَّا رسول الله ﷺ وأصحابه، فقم إليه فاقتله، فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطَّلب، والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت صفيَّة: فلمَّا قال ذلك ولم أرَ عنده شيئًا، احتجزت وأخذت عمودًا من الحصن، ثمَّ نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتَّى قتلته، ثمَّ رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسَّان انزل فاستلبه فإنَّه لم يمنعني أن أسلبه إلاَّ أنَّه رجل، فقال لي: مالي بسلبه من حاجة.

أخرجه الحاكم في «المستدرك» (51/4) والبيهقي في «دلائل النُّبوَّة» (443/3) وفي «السُّنن الكبرى» (308/6).

وقال الحاكم عقبه: «هذا حديث صحيح على شرط الشَّيخين ولم يخرِّجاه»، فعقَّب عليه الذَّهبي في «تلخيص المستدرك» بقوله: «عروة لم يدرك صفيَّة»، وحكاه عنه وليُّ الدِّين في «تحفة التَّحصيل» وسكت مقرًّا، وأشار إلى هذه العلَّة أيضًا محمَّد بن يوسف الصَّالحي، فإنَّه قال في «سبل الهدى والرَّشاد في سيرة خير العباد» (564/4): «فإن كان عروة أدرك جدَّته فسند القصَّة جيِّد قويٌّ».

قلت: وقد ثبت أنَّه لم يدركها كما قال الذَّهبي، فإنَّ صفيَّة ماتت سنة عشرين، وعروة إنَّما ولد آخر خلافة عمر سنة ثلاث وعشرين[5].

2 ـ وقال حمَّاد بن سلمة عن هشام بن عروة عن أبيه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ أدخل النِّساء يوم الأحزاب أطمًا من آطام المدينة، وكان حسَّان بن ثابت رجلاً جبانًا، فأدخله مع النِّساء، وأغلق الباب...»، فساق الحديث هكذا مرسلاً بمعناه.

أخرجه الطَّبراني في «المعجم الكبير» (319/24)، وقال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد» (194/6): «رجاله إلى عروة رجال الصَّحيح لكنَّه مرسل» ووقع في الطبراني: «جوادا» بدل «جبانا» وهو تصحيف.

3 ـ وقال حمَّاد بن زيد ـ وهو أوثق الثَّلاثة ـ: عن هشام ابن عروة: كان حسَّان في الأطم يوم الخندق، فقالت صفيَّة: يا أبا الوليد!

أخرجه البخاري في «التَّاريخ الكبير» (29/3) هكذا مختصرًا، فجعله من مرسل هشام لا من مرسل أبيه.

فالخبر ـ إن سلم من الاضطراب ـ معلولٌ بالإرسال أو الانقطاع كيفما دار.

□ الطَّريق الثَّاني: قال ابن إسحاق في «السِّيرة» (ص404): حدَّثني يحيى بن عبَّاد بن عبد الله بن الزُّبير عن أبيه عبَّاد قال: كانت صفيَّة بنت عبد المطَّلب في فارع ـ حصن حسَّان ابن ثابت ـ، قالت: وكان حسَّان بن ثابت معنا فيه مع النِّساء والصِّبيان.. فذكرت الخبر كما تقدَّم سواء.

ومن طريق ابن إسحاق أخرجه: الطَّبري في «التَّاريخ» (577/2) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (430/12) والبيهقي في «دلائل النُّبوَّة» (442/3)، وفي «السُّنن الكبرى» (308/6).

وهذا إسناد حسن، فيحيى وأبوه ثقتان، لكنَّه مرسل فيما يظهر، فعبَّاد قال البخاري في «التَّاريخ» (32/6): «سمع أباه وعائشة» اهـ، وروى عن عمر، قال في «تهذيب التَّهذيب»: «أما روايته عن عمر بن الخطَّاب فمرسلة بلا تردُّد».

قلت: فلأن تكون عن صفيَّة مرسلة أولى فإنَّها توفِّيت سنة عشرين في خلافة عمر كما تقدَّم.

□ الطَّريق الثَّالث: أخرجه الحاكم (50/4) والبزار (978) والطَّبراني (24/321 ـ 322) وابن عساكر (429/12 ـ 430) وغيرهم، من طريق إسحاق بن إبراهيم الفروي حدَّثتنا أمُّ عروة بنت جعفر بن الزُّبير عن أبيها عن جدِّها الزُّبير عن أمِّه صفيَّة بنت عبد المطَّلب أنَّ رسول الله ﷺ لما خرج إلى الخندق..

(5) «تاريخ خليفة» (ص89)، و«تهذيب الكمال» (22/20).

فذكرته كما تقدَّم، إلاَّ أنَّها قالت: فقلت له: اربط هذا السَّيف على ذراعي، فربطه فقمت إليه، فضربت رأسه، حتَّى قطعته، فقلت له: خذ بأذنيه فارم به عليهم، فقال: والله ما ذاك فيَّ، فأخذت برأسه فرميت به عليهم، فتضعضعوا وهم يقولون: قد علمنا أنَّ محمَّدًا لم يكن ليترك أهله خُلوفًا ليس معهنَّ أحد..

قال الحاكم: «هذا حديث كبير غريب بهذا الإسناد..».

قلت: جعفر بن الزُّبير ذكره ابن حبَّان في الثِّقات (105/4)، وترجمه البخاري (190/2) وابن أبي حاتم (478/2) فلم يذكرَا فيه شيئًا، وله في «تهذيب التَّهذيب» ترجمة تدلُّ على أنَّه كان نبيلاً شريفًا.

ولكن علَّة الحديث ابنته أم عروة، فإنِّي لم أجد من ذكرها بجرح أو تعديل، غير ابن سعد فإنَّه سمَّاها فيمن سمَّى من أولاد جعفر ابن الزُّبير البخاري في التاريخ الأوسط (163/2) وأرَّخ سنة وفاتها (181هـ)، وبها أعل الإسنادَ الهيثمي في «المجمع» (165/6) فإنَّه قال: «رواه الطَّبراني من طريق أم عروة ولم أعرفها وبقيَّة رجاله ثقات».

وفي إسحاق الفروي كلام؛ فإنَّه وإن أخرج له البخاري فقد عيب ذلك عليه؛ لأنَّه يتفرَّد ويغرب، وقد وهَّاه أبو داود جدًا، وقال النَّسائي: «ليس ثقة»، وقال أبو حاتم فيه مقالة العدل: «كان صدوقا ولكنَّه ذهب بصره فربَّما لقن الحديث، وكتبه صحيحة»، قال الذَّهبي في ترجمته في «السِّير» (650/10): «القول ما قاله فيه أبو حاتم».

فإن كانت الغرابة والتَّخليط الواقعان في هذا الخبر من أم عروة فواضح، وإلاَّ فهي مضمومة إلى غرائب الفروي، والله أعلم.

أمَّا محمَّد بن يوسف الصَّالحي صاحب «سبل الهدى والرَّشاد»، فقد حسَّن هذا الإسناد في كتابه (564/4) وقد عرفت ما فيه.

◈ تنبيه: سقط من إسناد الطَّبراني «عن جدها» فصار كأن جعفرا يرويه عن صفيَّة، وهو خطأ فليستدرك.

◈ تنبيه ثان: أخرج الخبر أبو يعلى (683) وابن عساكر (430/12) من طريق محمَّد بن الحسن المدني حدَّثتني أم عروة عن أبيها عن جدِّها الزُّبير قال: لمَّا خلف رسول الله نساءه بالمدينة خلفهن في فارع وفيهنَّ صفيَّة بنت عبد المطَّلب وخلف فيهنَّ حسَّان بن ثابت وأقبل رجل من المشركين ليدخل عليهنَّ فقالت صفيَّة لحسَّان: عندك الرَّجل، فجبن حسَّان وأبى عليه فتناولت صفيَّة السَّيف فضربت به المشرك حتَّى قتلته فأُخبر رسول الله بذلك فضرب لصفيَّة بسهم كما كان يضرب للرِّجال.

ومحمَّد بن الحسن هذا هو ابن زبالة، واهي الحديث منكرُه، وقد خالف هنا بجعله من مسند الزُّبير وأنَّ الَّذي قتلته صفيَّة كان أحد المشركين فلا التفات إلى ما جاء به.

□ الطَّريق الرَّابع: أخرجه ابن عساكر (432/12) والمزِّي في «تهذيب الكمال» (6/ 23ـ24) من طريق الزُّبير بن بكَّار قال: حدَّثني علي بن صالح عن جدي عبد الله بن مصعب عن أبيه قال: كان ابن الزُّبير يحدِّث أنَّه كان في فارع ـ أطم حسَّان بن ثابت ـ مع النِّساء يوم الخندق ومعهم عمر بن أبي سلمة، قال ابن الزُّبير: ومعنا حسَّان بن ثابت ضاربًا وتدًا في ناحية الأطم، فإذا حمل رسول الله ﷺ على المشركين، حمل على الوتد، فضربه بالسَّيف، وإذا أقبل المشركون، انحاز عن الوتد، حتَّى كأنَّه يقاتل قرنًا، يتشبَّه بهم، كأنَّه يرى أنَّه يجاهد حين جبن... قال ابن الزُّبير: وجاءنا يهودي يرتقي إلى الحصن، فقالت صفيَّة لحسَّان: عندك يا حسَّان، قال: لو كنت مقاتلاً لكنت مع النَّبيِّ ﷺ، فقالت صفيَّة له: أعطني إيَّاه (يعني السَّيف)، فلمَّا ارتقى اليهودي ضربته حتَّى قتلته، ثمَّ احتزت رأسه، فأعطته حسَّانًا وقالت: طوِّح به فإنَّ الرَّجل أشد رمية من المرأة، تريد أن ترعب أصحابه.

عبد الله بن مصعب وعلي بن صالح تقدَّم أنَّهما ضعيفان.

وكذلك والد عبد الله: مصعب بن ثابت، ضعَّفه أحمد وابن معين وأبو حاتم والنَّسائي كما في ترجمته من «تهذيب الكمال» (18/28)، ثمَّ هو مع ذلك مرسل، نصَّ على إرساله المزي؛ لأنَّ مصعبًا توفي ـ فيما قال أبو حاتم ـ (سنة157) وهو ابن ثلاث وسبعين، فتكون ولادته على هذا سنة ثلاث وثمانين، بعد وفاة ابن الزُّبير بعشر سنين فالخبر مرسل مسلسل بالعلل.

□ الطَّريق الخامس: هو تعريضٌ بالقصَّة، رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (432/12ـ433) من طريق الزُّبير بن بكَّار قال: حدَّثني محمَّد بن الضَّحاك عن أبيه الضَّحاك بن عثمان الحزامي قال: لما كان من أمر صفيَّة وحسَّان واليهودي ما كان، بلغنا أنَّهم ذكروه للنَّبيِّ ﷺ فضحك حتَّى رأيت أقصى نواجذه، وما رأيته ضحك من شيء قط ضحكه منه.

وهذا بلاغ كما ترى، فإنَّ الضَّحَّاك من تبع الأتباع، وابنه محمَّد له ذكر في «تاريخ البخاري» (119/1) و«الجرح» لابن أبي حاتم (290/7)، وأورده أيضًا ابن حبَّان في «ثقاته» (59/9).

هذا جملة ما رأيته من أسانيد هذه القصَّة، وقد رأيت أنَّها جميعًا معلولة ليس فيها إسناد قائم، فلا تصلح لأن يبنى

عليها حكم، وهذا وحده كاف في إبطال تلك الفرية ودفعها عن حسَّان رضي الله عنه.

وقد حكى السُّهيلي في «الرَّوض» (324/6) عن بعض العلماء إنكار القصَّة وإعلالها بالإرسال.

وحكاه أيضًا الحافظ أبو عمر ابن عبد البرِّ في كتاب «الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير» (ص186)، وقال في «الاستيعاب» (166/1): «ذكروا من جبنه أشياء مستشنعة رَوَوْها عن ابن الزُّبير أنَّه حكاها عنه، كرهت ذكرها لنكارتها».

وممَّن جزم بذلك العلاَّمة الفقيه أبو ذر الخشني شارح السِّيرة، وسيأتي كلامه.

وقد يقال: إنَّ للقصَّة أصلاً؛ لاعتضاد هذه الطُّرق أحدها بالآخر، ولا سيما وأنَّ الشَّأن سيرة وأخبار، وقد علم أنَّ أهل هذا الفنّ يكتفون بكون الخبر من مرسل هشام، فكيف إذا أسند وأرسل من أوجه أخر.

فالجواب أنَّنا لو سلَّمنا ثبوت أصل القصَّة فلا دلالة فيه على ما رمي به حسَّان لأنَّ ما روي منها بأصلح أسانيدها ـ وهي مرسل عروة ومرسل عباد وطريق أم عروة ـ ليس فيه التَّنصيص بكونه جبانًا، وإنَّما ورد ذلك في طريق حمَّاد بن سلمة عن هشام وقد خولف كما تقدَّم، ومن طريق مصعب بن ثابت وقد رأيت أنَّه طريق مسلسل بالعلل، ومن طريق ابن زبالة وهو منكر الحديث.

ولو فرض أنَّه جاء من بعض الطُّرق الصَّالحة فلا شكَّ أنَّ من صرَّح به فإنَّما اعتمادًا على ما فهمه أو ما استقرَّ في ذهنه من ذلك، أمَّا العالمون بشأن حسَّان فيشهدون عليه بخلاف ذلك.

قال المبرِّد في «الفاضل» (ص13) بعد إيراد الخبر الَّذي تقدَّم في أوَّل الفصل: «وذكر الزُّبير أنَّ قومه كانوا يدفعون أن يكون جبانًا، ولكنَّه أقعده عن الحرب أن أَكْحُلَهُ قد قُطع، فذهب منه العمل في الحرب، وأنشد الزُّبير قول حسَّان:

أضرَّ بجسمي مَرُّ الدهور
وخان قراع يدي الأَكْحَلُ
وقد كنتُ أشهد وَقْعَ الحروب
ويحمَرُّ في كفِّي المُنصلُ
ورثنا من المجد أُكْرُومة
يُورِّثُها الآخرَ منَّا الأوَّلُ

قال المبرِّد: «وحُدِّثتُ عن الأصمعي قال: الدَّليل على أنَّ حسَّانًا لم يكن جبانًا من الأصل؛ أنَّه كان يهاجي خلقًا فلم يُعيِّره أحد منهم».

وقال أبو ذرٍّ الخشني في «شرح السِّيرة» (ص304): «هذا الحديث ليس بصحيح؛ لأنَّ حسَّانًا رضي الله عنه كان يهاجي الشُّعراء في الجاهليَّة والإسلام.. ولم يرمه أحد منهم بجبن، وكانوا كثيرًا ما يذمُّون به، فلو كان صحيحًا لكان ممَّا يذكر في الشِّعر ويذمّ به كما ذمَّ هو غير واحد وهجاه بالفرار من القتال والجبن، فلمَّا لم يذكر ذلك في شعر دلَّ ذلك على أنَّ هذا الخبر ليس بصحيح».

وقد أسند ابن عساكر (433/12) هذا المعنى عن ابن الكلبي، وقال نحوًا منه ابن عبد البرِّ في «الدُّرر» (ص186)، وحكاه المقريزي في «إمتاع الأسماع» (73/6) عن القاضي إسماعيل بن إسحاق، وذكره ابن بسَّام في كتاب «الذَّخيرة في محاسن الجزيرة» في كلام نفيس في هذا المعنى (331/2 ـ 332) وأفاد أنَّه هاجى نحوًا من ثمانين شاعرًا، وزاد عليه من الدَّلالة على شجاعة حسَّان أنَّه كان ممَّن له كنيتان في السِّلم والحرب كما كان الأبطال تفعل على عهده، فكان يكنَّى في السِّلم بأبي الوليد وفي الحرب بأبي نعامة.

فهؤلاء قوم حسَّان، وأعيان من أهل العلم والتَّقدم في معرفة السِّير والأخبار والحديث وقد قالوا ما قرأت في الاحتجاج لشجاعته وبراءته من الجبن.

إذا ثبت هذا فلم يبق ممَّا يحتج به من يرمي حسَّانًا بالجبن إلاَّ كونه لم يشهد مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مشهدًا ولم يغز معه غزوة، وجوابه من وجهين:

الأول ـ وعليه الاعتماد ـ: ما تقدَّم من كونه ترك ذلك لِما أصاب أكحله، فهو عجز لا جبن.

والثَّاني: ما أسنده أبو يعلى في المسند (2615) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (400/12) والمزِّي في «تهذيب الكمال» (21/6) من طريق حُديج بن معاوية عن أبي إسحاق عن سعيد ابن جبير قال: جاء رجا إلى ابن عباس فقال: قد جاء حسان اللعين فقال ابن عباس: ما هو بلعين لقد جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ولسانه[6].

وأخرجه ابن عساكر (401/12) من طريق حبيب ابن حسان عن سعيد بنحوه، وحبيب منكر الحديث.

قال الذَّهبي في «السِّير» (518/2) تعليقًا على هذا الخبر: «قلت: هذا دالٌّ على أنَّه غزا».

هذا آخر ما تيسَّر جمعه وتحريره.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا.

تأمُّلات ووقَفات مع..

التوحيد الخالص



قصة الشرك الأول

عبد الله بوزنون
إمام أستاذ - المديَّة

لا زال التَّوحيد في قلوب بني آدم هو عقيدتهم وبه يدينون، لا يعرفون شركًا ولا يُحْدِثون كفرًا، مكثوا على ذلك قرونًا منذ خلق الله آدم إلى قبل بعثة نوح عليه السلام، ودليل ذلك ما أخبر الله تعالى عنهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ [يونس: 19].

قال ابن عبَّاس: «كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلُّهم على شريعة من الحقِّ، فاختلفوا، ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة]»(1).

هكذا بقي التَّوحيد هو دين النَّاس حصنًا منيعًا حتَّى إذا نُسِي العلم ومات الصَّالحون أتاهم الشَّيطان، فلا زال يتدرَّج بهم في الغواية، ويزيِّن لهم سبل الرَّدى، بحجَّة محبَّة الصَّالحين حتَّى أوقعهم في شَرَك الشِّرك وقبيح الكفر، بل في عصبيَّة مقيتة له، فآل أمر النَّاس بعد أن كان على التوحيد إلى قولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، فاستحقوا الوصف بقوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ ﴾.

قد يكون سؤالك أخي المسلم كيف كانت غوايتهم وما هو سبب ضلالهم ؟!

يخبرنا بذلك ابن عبَّاس رضي الله عنه لمَّا فسَّر الآية السَّالف ذكرها فقال: «صارت الأوثان الَّتي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أمَّا ودٌّ كانت لكلب بدومة الجَنْدل، وأمَّا سُواع كانت لهُذيل، وأمَّا يغوث فكانت لمراد ثمَّ لبني غُطَيْف بالجوف عند سبأ، وأمَّا يعوق فكانت لهَمْدَان، وأمَّا نَسْر فكانت لحِمْيَر، لآل ذي الكَلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبُوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسون أنصابًا، وسمّوها بأسمائهم ففعلوا، فلم تُعبد حتَّى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُبِدَتْ»(2).

وهذا الأثر جليل القدر رفيع المنزلة؛ لأنَّه يبيِّن ذرائع الشِّرك ومسالكه في كلِّ زمان ومكان، لذا حسن التَّأمُّل فيه والوقوف عند معالمه حتَّى يتجنَّب المسلم الموحِّد ما زلَّت به أقدام كثير من السَّالكين عن الصِّراط المستقيم والدِّين الحنيف.

وفي هذه الأسطر بعض الوقفات مع هذه القصَّة وشيء من التَّأمُّلات في هذا الأثر.

(1) أخرجه الطَّبري (3/621).

(2) أخرجه البخاري (4920)، وانظر دفاع ابن حجر على صحَّة هذا الأثر (8/851).

الوقفة الأولى

خطورة البدعة وضررها على التَّوحيد

ألا ترى أنَّ الشَّيطان تدرَّج بقوم نوح أوَّلاً في الابتداع حيث زيَّن لهم أن يصوِّروا تماثيل الصَّالحين في أماكن عبادتهم . وقَصْدُهم في ذلك ونيَّتُهم حسنة . ليأتي مَن بعدَهم فيتَّخذها معبودات من دون الله.

قال القرطبي يبيِّن قصدهم في ابتداعهم: «قَالَ عُلَمَاؤُنَا: فَفَعَلَ ذَلِكَ أَوَائِلُهُمْ لِيَتَأَنَّسُوا بِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّوَرِ، وَيَتَذَكَّرُوا أَحْوَالَهُمُ الصَّالِحَةَ، فَيَجْتَهِدُونَ كَاجْتِهَادِهِمْ وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ . عَزَّ وَجَلَّ . عِنْدَ قُبُورِهِمْ، فمضت لهم بذلك أزمان ثمَّ إنَّهم خَلَفٌ من بعدهم خلوف جهلوا أغراضهم ووسوس لهم الشَّيطان إنَّ آباءكم وأجدادكم كانوا يعبدون هذه الصُّور فعبدوها...» اهـ(3).

ولهذا قعَّد العلماء قاعدة يشهد لها النَّقل والواقع وهي أنَّ البدعة بريد الكفر وسبيله فمن استساغ البدعة سهل عليه الشِّرك، ومصداق ذلك قوله

(3) «تفسير القرطبي» (2/295).

تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: 63]، قال الإمام أحمد: «الفتنة الشِّرك، لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه»[4].

فهذا النَّقل، وأمَّا الواقع فتجد المبتدعة من أكثر النَّاس تساهلاً في الشِّرك يترقَّون في البدع والمحدثات حتَّى يؤول بهم الأمر إلى الشِّرك، بل إلى الدَّعوة إليه، يذودون عنه ويدعون النَّاس إليه، وهذا الغاية في الشَّرِّ.

يقول ابن القيِّم رحمه الله واصفًا عبَّاد القبور وكيف أنَّ الشَّيطان يزيِّن لهم البدع حتَّى يوقعهم في الشِّرك: «إنَّ الشَّيطان بلطف كيده يحسِّن الدُّعاء عند القبر وأنَّه أرجح منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار، فإذا تقرَّر ذلك عنده نقله درجة أخرى من الدُّعاء عنده إلى الدُّعاء به والإقسام على الله به، وهذا أعظم من الَّذي قبله، فإنَّ شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه، وقد أنكر أئمَّة الإسلام ذلك... فإذا قرر الشَّيطان عنده أنَّ الإقسام على الله به والدُّعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجع في قضاء حاجته، نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله، ثمَّ ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتَّخذ قبره وثنًا يعكف عليه ويوقد عليه القنديل، ويعلِّق عليه السُّتور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسُّجود له، والطَّواف به وتقبيله واستلامه والحجّ إليه والذَّبح عنده، ثمَّ ينقله درجة أخرى إلى دعاء النَّاس إلى عبادته واتِّخاذه عيدًا ومنسكًا، وأنَّ ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم»[5].

(4) أخرجه ابن بطَّة في «الإبانة الكبرى» (260/1).
(5) «إغاثة اللَّهفان» (234/1).

الوقفة الثانية

فضل العلم

لأنَّـه الحصـن الحصـين للتَّوحيد والسَّدُّ المانع من انتشار الشِّرك ولا أدل على هذا من قصَّة الشِّرك الأوَّل إذ لم يظهر الشِّرك في النَّاس حتَّى ذهبت معالم العلم ورحل رجاله، ففي الأثر: «فلم تعبد حتَّى إذا هلك أولئك وتنسَّخ العلم عُـبـدت»، فعلَّق خفاء الشِّرك ببقاء العلم وأهـلـه، فلمَّا تنسخ العلم ونسي عـبـدت الأصـنـام وقبـور أولئك الصَّالحين؛ لأنَّ العلماء يبيِّنون للنَّاس سبل الهدى ويحذِّرونهم سبل الشَّيطان بدءًا بالشِّرك، وبموتهم يضلُّ الخلق كما ضلَّ الأوائل من البشر، ويسود الجهَّال فيزيِّنون للنَّاس الشّركيَّات والبدع كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ حيث قال: «إِنَّ اللهَ لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالاً فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[6].

وفي هذا المقام يحسن إيـراد نقل لكلام متين للشَّيخ مبارك الميلي يبيِّن آثار فَقْد العلم النَّافع في الأمَّة وضرر الجهل فيقول: «إنَّ الأمَّـة متى فقدت العالم البصير والدَّليل النَّاصح والمرشد المهتدي تراكمت على عقولها سحائب الجهالات، وران على بصائرها قبائح العادات وسهل عليها الإيمان بالخيالات، فانقادت لعالم طمَّاع وجاهل خدَّاع ومرشد دجَّال.. هذا يتقدَّم إليها بما له من أسباب خفيَّة فتراه تصرُّفًا في الكون وذلك يلقي إليها بأقوال مجملة ينزلها كلّ سامع على ما في نفسه، فتراه من علم الغيب وتقول: «سيدي فلان جاء بالخبر» ثمَّ نجد من تسمِّيه عالمًا يثبت قدمها في هذا الخبال ويزعم لها أنَّ الحقيقة في هذا الخيال»[7].

(6) «صحيح البخاري» (100)، و«صحيح مسلم» (2673).

الوقفة الثالثة

عظم فتنة القبور والتَّماثيل

لأنَّهما حبل الشَّيطان وسبيله لإيقاع بني آدم في الشِّرك بربِّهم وهـذا في العهد الأوَّل، بل وفي كلِّ زمان وعصر، ووجه الشَّاهد على ما ذكرت أنَّه قال في الأثر: «فلمَّا هلكوا أوحى الشَّيطان إلى قومهم أن انصبُوا إلى مجالسهم الَّتي كانوا يجلسون أنصابًا»، قال ابن القيِّم[8]: «قـال غير واحد من السَّلف كـان هـؤلاء قـومًـا صـالحـين في قوم نـوح عليه السلام، فلمَّا مـاتـوا: عكفوا على قبورهم، ثمَّ صَوَّرُوا تماثيلهم، ثمَّ طال عليهم الأمد فعبدوهم»، فإذا كان مبدأ الشِّرك إنَّما هو عبادة القبور والأصنام وهي الَّتي انتقلت إلى العرب كما في أثر ابن عبَّاس علم المرء عظم هاتين الفتنتين ووجب الحذر منهما؛ لأنَّهما أصل البلاء ورأس الدَّاء.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «ومن أعظم مكايده الَّتي كاد بها أكثر النَّاسِ، وما نجا منها إلا من لم يرد الله تعالى فتنته: ما أوحاه قديمًا وحديثا إلى حزبه وأوليائه، من الفتنة بالقبور، حتَّى آلَ الأمرُ فيها إلى أن عُبِد أربابُها من دون الله، وعُبِدت قبورُهم، واتُّخذت أوثانًا، وبُنِيت عليها

(7) «الشِّرك ومظاهره» (ص161).
(8) «إغاثة اللهفان» (171/1).

الهياكل، وصوِّرت صُوَرُ أربابها فيها، ثمَّ جُعلتْ تلك الصُّوَرُ أجسادًا لها ظلٌّ، ثمَّ جُعلتْ أصنامًا وعُبدَتْ مع الله تعالى، وكانَ أوَّلُ هذا الدَّاءِ العظيم في قَوْمِ نوح كما أخبر سُبْحانهُ عنهم في كتابه حيثُ يقـول: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة نوح]... ثمَّ قال: فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التَّماثيل»[9].

واعلم أخي المسلم أنَّ فتنة القبور هي أشدُّ الفتنتين، وأعظم أثرًا في قلوب عُبَّادها كما ذكر ذلك ابن تيمية رحمه الله لما قال: «فإن يشرك بقبر الرَّجل الَّذي يعتقد نبوَّته أو صلاحه، أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله، ولهذا نجد أقوامًا كثيرين يتضرَّعون عندها، ويخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في المسجد، بل ولا في السَّحَر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصَّلاة عندها والدُّعاء ما لا يرجونه في المساجد الَّتي تشد إليها الرِّحال»[10].

ولهذا جاءت الشَّريعة الحنيفيَّة تنهى عن كلِّ ما يؤدِّي إلى تعظيم القبور وعبادتها حسما لمادة الشِّرك وسدًّا لذرائعه، فمن ذلك: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور، ولعن من فعل ذلك، ونهى عن تجصيص القبور، وتشريفها، واتِّخاذها مساجد، وعن الصَّلاة إليها وعندها، وعن إيقاد المصابيح عليها، وأمر بتسويتها، ونهى عن اتِّخاذها عيدًا، وعن شدِّ الرِّحال إليها، لئلاَّ يكون ذلك ذريعةً إلى اتِّخاذها أوثانًا والإشراك بها، وحرَّم ذلك على من قصدهُ ومنْ لم يَقْصِدْهُ، بل قصد خلافهُ سَدًّا للذَّريعَة»[11].

وقد كان السَّلف يحذِّرون من تعظيم قبور الصَّالحين أو إظهارها، وأذكر لك أخي القارئ واقعة تبيِّن هذا الأمر بجلاء، قال أبو العالية: «لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميِّت عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر فدعا له كعبًا فنسخه بالعربيَّة، فأنا أوَّل رجل قرأه من العرب قرأته مثل ما أقرأ القرآن هذا... قيل له: فماذا صنعتم بالرَّجل؟ قال: حفرنا له بالنَّهار ثلاثة عشرة قبرًا متفرِّقة، فلمَّا كان اللَّيل دفناه وسوَّينا القبور كلَّها لنعميه عن النَّاس لا ينبشونه، قيل له: وما يرجون منه؟ قال: كانت السَّماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقيل له: من كنتم تظنُّون الرَّجل؟ قال: رجل يقال له دانيال»، ذكر هذا الأثر ابن كثير في «البداية والنِّهاية» (376/2)، وقال: «وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية».

فهذا هو حال السَّلف مع هذه الفتنة، وهم أعلم النَّاس بربِّهم، ومع ذلك يخشون أن يفتتن النَّاس بقبور صالحيهم، فهل بعد هذا يزهَّد في التَّحذير من عبادة القبور وتعظيمها، ويقال: إنَّ شرك القبور قد ولَّى دهره والآن علينا بمحاربة شرك القصور، ألم ينظر هذا القائل إلى ما حوله؟ ألم يَجُلْ بطرفه في البلاد ليرى القبور في قمم الرَّوابي وأعالي الجبال يحجُّ إليها النَّاس من كلِّ فوج وحدب يقصدونها بالذَّبح والدُّعاء والنُّذور؟ قد زيَّنوها بالشُّموع والسُّتور وشيِّدت تشييد القصور حتَّى يعظِّموها لزائريها ويلبسوا عليهم دينهم، ألا ساء ما يَزِرُون.

الوقفة الرابعة

الحذر من الغلوِّ في الصَّالحين

فإنَّ تعظيمهم من دون تقيُّد بالشَّرع يؤدِّي بالمرء إلى عبادتهم من دون خالقهم جلَّ وعلا، وإن شئت شاهدًا على ذلك فيكفيك أنَّ معبودات قوم نوح الَّتي قال الله عنها: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾، إنَّما هي أسماء قوم صالحين كما مرَّ معك في أثر ابن عبَّاس، وكذلك ما جاء عن إله العرب الَّذي يقال له اللاَّت؛ فإنَّما هو رجل صالح، قال مجاهد عند قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النجم]، قال: «كان يَلُتُّ السَّويق للحاجِّ، فعكف على قبره»[12].

ومن هذا الباب عُبدت الأنبياء من دون الله، فعبدت النَّصارى المسيح، وعبدت اليهود عُزَيْرًا، وهلمَّ جرًّا، يزيِّن الشَّيطان لبني آدم أنَّ الغلوَّ فيهم إنَّما هو من محبَّتهم والاحتفاء بهم حتَّى إذا غلوا فيهم هان عليهم أن يعبدوهم من دون الله بدعائهم والاستشفاع بهم والعكوف عند قبورهم؛ لأنَّهم في زعمهم الوسائط يقرِّبونهم إلى خالقهم.

قال ابن القيِّم عن حالهم: «غرَّهم الشَّيطان فقال: بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصَّالحين وكلَّما كنتم أشد لها

(9) «إغاثة اللَّهفان» (2/ 201. 203).
(10) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (2/ 680).
(11) «إعلام الموقِّعين» (3/ 174).
(12) «تفسير الطَّبري» (22/ 47).

تعظيمًا وأشدّ فيهم غلوًّا كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله! من هذا الباب بعينه دخل على عُبَّاد يغوث ويعوق ونسر ومنه دخل على عبَّاد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة فجمع المشركون بين الغلوّ فيهم والطَّعن في طريقتهم»، ثمَّ ذكر رَحِمَهُ اللهُ السُّنَّة المرضيَّة والطَّريقة الشَّرعيَّة تجاه من نعتقد صلاحه فقال: «وهدى الله أهل التَّوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم الَّتي أنزلهم الله إيَّاها: من العبوديَّة وسلب خصائص الإلهيَّة عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم»[13].

الوقفة الخامسة

حجَّة المشركين واحدة وإن اختلفت أزمانهم وتباعدت أماكنهم

فهم يقولون: إنَّا لا نعبد آلهتنا استقلالاً وإنَّما نتَّخذها وسائط تقرِّبنا إلى الله زلفى، وهذه حجَّة المشركين الأوائل فما عبدوا صالحيهم إلاَّ بهذه الدَّعوى، ففي رواية لهذه القصَّة ذكرها الكلبي في كتابه «الأصنام» (ص52)، قال: «ثمَّ جاء من بعدهم القرن الثَّالث فقالوا: ما عظَّم أوَّلونا هؤلاء إلاَّ وهم يرجون شفاعتهم عند الله تعالى فعبدوهم وعظَّموا أمرهم واشتدَّ كفرهم»، فانظر كيف سوَّغوا لأنفسهم عبادة هذه الأصنام بأنَّه يستشفع بها، وهذا قريب أيضًا من حجَّة مشركي العرب لمَّا قالوا عن آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، قال قتادة في تفسير هذه الآية: «﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾؛ قالوا: ما نعبد هؤلاء إلاَّ ليشفعوا لنا عند الله»[14]، بل هي حجَّة المشركين في كلِّ وقت، قال ابن كثير عن هذه الشُّبهة الَّتي هي متَّكأ دعوة المشركين في شركهم: «وهذه الشُّبهة هي الَّتي اعتمدها المشركون في قديم الدَّهر وحديثه، وجاءتهم الرُّسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ بردِّها والنَّهي عنها، والدَّعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأنَّ هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه»[15]، وهذه الحجَّة الَّتي يدندن حولها أهل الشِّرك وعبَّاد القبور داحضة عند ربِّهم قد أبطلها القرآن وردَّها؛ لأنَّها تخالف أصليَ الشَّفاعة المثبتة وهما: إذن المولى للشَّافع ورضاه عن المشفوع له، فالله لا يشفع أحدٌ عنده إلاَّ بإذنه، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: 255]، وهو لم يأذن لهؤلاء بشفاعتهم، بل سمَّى ذلك شركًا بنصِّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، قال ابن كثير: «فإذا كان هذا في حقِّ الملائكة المقرَّبين، فكيف ترجون أيُّها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنَّهي عن ذلك جميع كتبه؟»[16] اهـ.

والأصل الثَّاني الَّذي خالفته الشَّفاعة الشِّركيَّة هو أنَّه لا يشفع أحد إلاَّ بعد رضى الله عن المشفوع له قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم]، قال السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: لا بدَّ من اجتماع الشَّرطين: إذنه تعالى في الشَّفاعة، ورضاه عن المشفوع له»[17]، فهذه الملائكة مع عظم قدرها لا تغني شفاعتها حتَّى يأذن الله لها ويرضى عمَّن شفعت له، فكيف بآلهة المشركين الَّتي أشركوا بها مع الله؟!

واعلم ـ أخي المسلم الموحِّد ـ أنَّك إن أردت أن تنال الشَّفاعة حقيقةً فأخلص توحيدك لله الَّذي هو مالكها، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله! من أسعد النَّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: «لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيث أَحَدٌ أَوَّل مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيث، أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَة مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِه»[18].

قال ابن تيمية: «فتلك الشَّفاعة هي لأهل الإخلاص بإذن الله، ليست لمن أشرك بالله ولا تكون إلاَّ بإذن الله، وحقيقته أنَّ الله هو الَّذى يتفضَّل على أهل الإخلاص والتَّوحيد فيغفر لهم بواسطة دعاء الشَّافع الَّذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك»[19].

هذا ما تيسَّر لي من القول في هذا الأثر بعد التَّأمُّل والنَّظر، جمعتها لك أخي القارئ في هذه الوريقات ورتَّبتها على نسق وقفات، عسى أن تكون ذخرًا للمستفيد وتنبيهًا للمستزيد، نسأل الله أن يجنِّبنا الشِّرك وحبائله، ويرزقنا التَّوحيد، ويعلِّمنا مسائله.

(13) «إغاثة اللَّهفان» (1/ 201 ـ 209).

(14) «تفسير الطَّبري» (20/ 157).

(15) «تفسير ابن كثير» (4/ 95).

(16) «تفسير ابن كثير» (4/ 389).

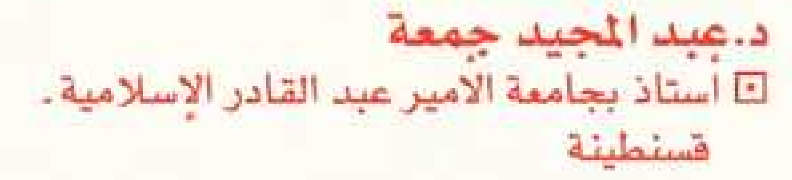
(17) «تفسير السَّعدي» (ص784).

(18) رواه البخاري (6570).

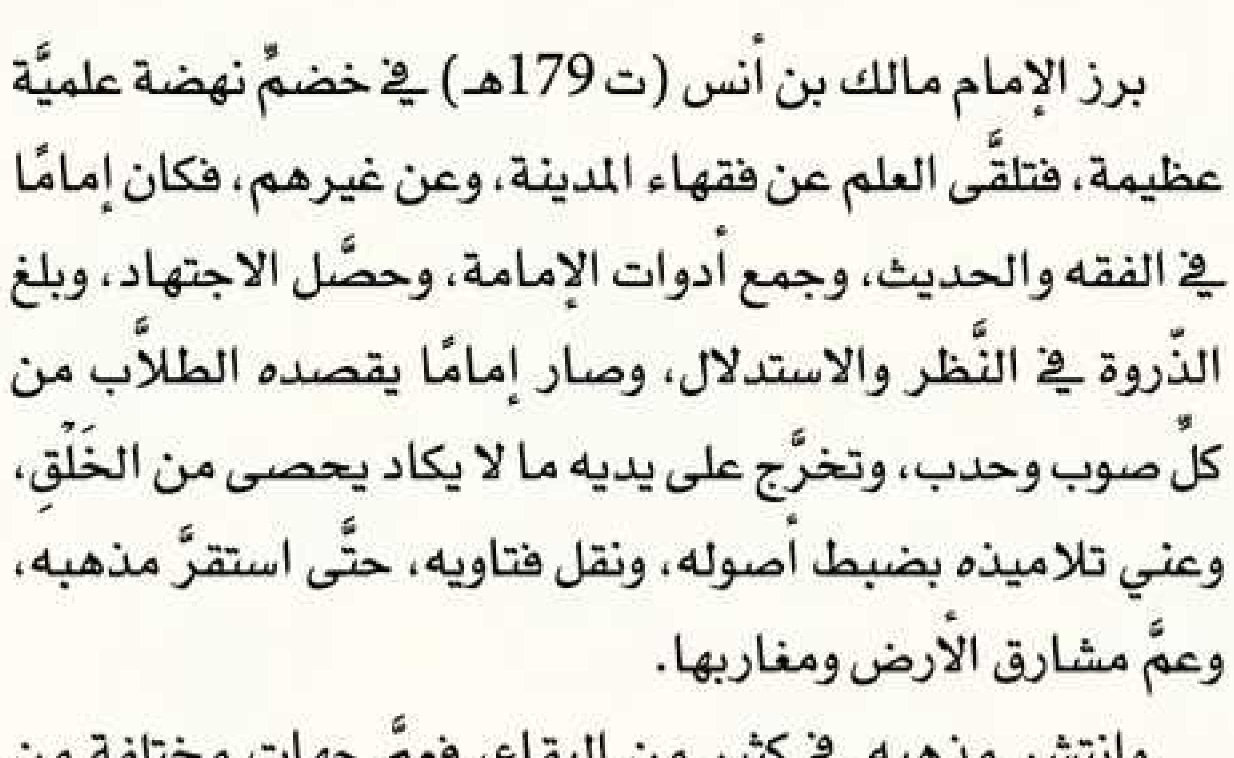
(19) «مجموع الفتاوى» (7/ 78).



دور العلمـــاء المالكية في تقرير الاجتهـــاد



د.عبد المجيد جمعة
أستاذ بجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية. قسنطينة



برز الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) في خضمِّ نهضة علميَّة عظيمة، فتلقَّى العلم عن فقهاء المدينة، وعن غيرهم، فكان إمامًا في الفقه والحديث، وجمع أدوات الإمامة، وحصَّل الاجتهاد، وبلغ الذّروة في النَّظر والاستدلال، وصار إمامًا يقصده الطلاَّب من كلِّ صوب وحدب، وتخرَّج على يديه ما لا يكاد يحصى من الخَلْق، وعني تلاميذه بضبط أصوله، ونقل فتاويه، حتَّى استقرَّ مذهبه، وعمَّ مشارق الأرض ومغاربها.

وانتشر مذهبه في كثير من البقاع، فعمَّ جهات مختلفة من الحجاز، وانتقل إلى العراق ومصر والقيروان والمغرب والأندلس وصقليَّة، وانتشر في جهات أخرى من العالم الإسلامي، فوصل إلى اليمن والشَّام، ودخل خُراسان، وفشا بقزوين، وأبهر، وما والاها، ودخل بلاد فارس وغيرها[1].

وقد حثَّ أتباعه على النَّظر والاجتهاد، وعدم التَّعصُّب لرأيه، ولمَّا طلب الخليفة العبَّاسي أبو جعفر المنصور أن يضع له كتابًا يحمل النَّاس عليه، قال له رحمه الله: «يا أمير المؤمنين! إنَّ أصحاب رسول الله ﷺ تفرَّقوا في البلاد فأفتى كلٌّ في مصره بما رآه، وفي رواية: إنَّ لأهل هذه البلاد قولاً، ولأهل المدينة قولاً، ولأهل العراق قولاً، تعدَّوا فيه طورهم»، وفي بعض الرِّوايات قال له الإمام مالك: «يا أمير المؤمنين! لا تفعل؛ فإنَّ النَّاس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كلٌّ قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودالوا له من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ

(1) انظر: «ترتيب المدارك» (24/1).

وغيرهم، وإنَّ ردَّهم عمَّا اعتقدوا شديد، فدعِ النَّاسَ وما هم عليه، وما اختار أهل كلِّ بلد لأنفسهم»[2].

وكان يقول: «ليس كلَّما قال رجل قولاً وإن كان له فضل يتَّبع عليه، يقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: 18]»[3].

ثمَّ خَلَفَ خَلْفٌ من بعد الإمام مالك رحمه الله وغيره من الأئمَّة المجتهدين ـ في منتصف القَرن الرَّابع ـ فترت هممُهم عن الاجتهاد المطلق، وقَصُرَ جهدُهم عن النَّظر في النُّصوص والاستنباط منها، ورَضُوا لأنفسهم التَّقليد المَحْضَ، والتَّعَصُّبَ البَحْتَ، واتَّخذ كلُّ واحد منهم إمامًا يتَّبعه، ومذهبًا يلتزمه، وصار مبلغَ علم أحدهم فَهْمُ كلام إمامه، وبيانُ أدلَّته، والتَّفريعُ على قواعده، والعناية بنقل أقواله، وبذلُ الجهد في نصرة مذهبه، والرَّدُّ على مخالفه حتَّى انقَسَمَ الفقه على أربعَة مذاهب، لكلِّ مذهب أنصارٌ وأشياع، وأحزابٌ وأتباع.

وصار اهتمامُ الفقيه المقلِّد بالمتون شرحًا أو اختصارًا أو تحشية، وأضحت نصوصُ إمام المذهب كنصوص الشَّارع، وادَّعى هؤلاء القومُ انقطاعَ الاجتهاد، وغلقَ أبوابه على رأس المائة الرَّابعة، ولم يَبْقَ مجتهدٌ مطلقٌ، بل المجتهدُ عندهم الَّذي يفهم نصوصَ إمامه، ويُفَرِّعُ على أصوله، ويطلقون عليه اسم: «مجتهد مقيَّد»، وهكذا دخل الفقه في عصر الانحطاط.

في خضمِّ هذا الجمود الفكري والرُّكود الفقهي، كان لعُلماء المالكيَّة دور بارز في إحياء الاجتهاد، وفتح أبوابه، وبعثه من جديد، فدعوا إلى ضرورة العودة بالفقه إلى ما كان عليه العهد الأوَّل، وأنكروا طريقة أتباع المذاهب في وقوفهم عند نصوص أئمَّتهم والاستدلال بها، دون الرُّجوع إلى النُّصوص الشَّرعيَّة والاحتجاج بها، والاستنباط منها؛ فهذا الإمام الحافظ أبو عُمَر بن عبد البرِّ ينكر على أهل بلده تقيُّدهم بالمذهب، فقال في بيان طوائف النَّاس في العلم:

«واعلم أنَّه لم تكن مناظرة بين اثنين أو جماعة من السَّلف إلاَّ لتفهُّم وجه الصَّواب فيصار إليه، ويعرف أصل القول وعلَّته، فيجري عليه أمثلته ونظائره، وعلى هذا النَّاس في كلِّ بلد إلاَّ عندنا ـ كما شاء الله ربُّنا ـ وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب؛ فإنَّهم لا يقيمون علَّة، ولا يعرفون للقول وجهًا، وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان ورواية لفلان؛ ومن خالف عندهم الرِّواية الَّتي لا يقف على معناها وأصلها وصحَّة وجهها، فكأنَّه قد خالف نصَّ الكتاب وثابت السُّنَّة، ويجيزون حمل الرِّوايات المتضادَّة في الحلال والحرام، وذلك خلاف أصل مالك، وكم لهم من خلاف أصول خلاف مذهبهم ممَّا لو ذكرناه لطال الكتاب بذكره، ولتقصيرهم عن علم أصول مذهبهم صار أحدهم إذا لقي مخالفًا ممَّن يقول بقول أبي حنيفة، أو الشَّافعي أو داود بن علي، أو غيرهم من الفقهاء، وخالفه في أصل قوله بقي متحيِّرًا، ولم يكن عنده أكثر من حكاية قول صاحبه، فقال: هكذا قال فلان، وهكذا روينا، ولجأ إلى أن يذكر فضل مالك ومنزلته، فإنْ عارضه الآخر بذكر فضل إمامه أيضًا ـ صار ـ في المثل، كما قال الأوَّل:

شكونـا إليهم خراب العـرا
ق فعابوا علينا لحوم البقر
فكانوا كما قيل فيما مضى
أريها السُّها وتُريني القَمر

وفي مثل ذلك يقول منذر بن سعيد رحمه الله:

عذيري من قوم يقولون كلما
طلبت دليلا: هكذا قال مالك
وإن عدت قالوا: هكذا قال أشهب
وقد كان لا تخفى عليه المسالك
فإن زدت قالوا: قال سحنون مثله
ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فإن قلت: قال الله ضجوا وأكثروا
وقالوا جميعا: أنت قرن مماحك
وإن قلت: قد قال الرَّسول فقولهم
ائت مالكًا في ترك ذاك المالك

وأجازوا النَّظر في اختلاف أهل مصر وغيرهم من أهل المغرب فيما خالفوا فيه مالكًا من غير أن يعرفوا وجه قول مالك ولا وجه قول مخالفه منهم، ولم يبيحوا النَّظر في كتب من خالف مالكًا إلى دليل يبيِّنه، ووجه يقيمه لقوله وقول مالك جهلاً منهم، وقلَّة نصح، وخوفًا من أن يطلِّع الطَّالب على ما هم فيه من النَّقص والتَّقصير فيزهد فيهم، وهم مع ما وصفنا يعيبون من خالفهم ويغتابونه، ويتجاوزون القصد في ذمِّه؛ ليوهموا السَّامع أنَّهم على حقٍّ، وأنَّهم أولى باسم العلم وهم: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: 39]»[4].

وتتجلَّى مظاهر عناية العلماء المالكيَّة بالاجتهاد، ودورهم الفعَّال في إحيائه، في الأمور التَّالية:

(2) انظر: «الانتقاء» لابن عبد البر (41)، و«ترتيب المدارك» (1/60).
(3) «الاعتصام» (2/235).

(4) انظر: «جامع بيان العلم» (2/328، 329).

أوَّلاً

دعوتهم إلى الاجتهاد وإبطال التَّقليد

فقد نصَّ كثير من علماء المذهب على وجوب الاجتهاد للعالم وتحريم التَّقليد عليه.

فعقد الإمام ابن القصار بابًا في إبطال التَّقليد من العالم للعالم، وذكر الأدلَّة على منعه[5].

وعقد العلاَّمة ابن عبد البرِّ بابًا في فساد التَّقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتِّباع، ونظم قصيدة في ذمِّه، وحثَّ فيها على التَّمسُّك بالنُّصوص والاجتهاد عند الاختلاف قال فيه:

يا سائلي عن موضع التَّقليد
خُذ عنِّي الجوابَ بفهم لبٍّ حاضر
واصغ إلى قولي ودِن بنصيحتي
واحفظ عليَّ بوادري ونوادري
لا فرق بين مقلِّد وبهيمة
تنقاد بين جنادل ودعاثر

وقد حكى الاتِّفاق على أنَّ المقلِّد لا علم له، ثمَّ حثَّ على حفظ النُّصوص والتَّفقُّه فيها والاستنباط منها، وترك التَّقليد فقال: «فعليك يا أخي بحفظ الأصول والعناية بها، واعلم أنَّ من عني بحفظ السُّنن والأحكام المنصوصة في القرآن، ونظر في أقاويل الفقهاء فجعله عونًا له على اجتهاده ومفتاحًا لطرائق النَّظر، وتفسيرًا لجمل السُّنن المحتملة للمعاني، ولم يقلِّد أحدًا منهم تقليد السُّنن الَّتي يجب الانقياد إليها على كلِّ حال دون نظر، ولم يرح نفسه ممَّا أخذ العلماء به أنفسهم من حفظ السُّنن وتدبُّرها، واقتدى بهم في البحث والتَّفهُّم والنَّظر، وشكر لهم سعيهم فيما أفادوه ونبَّهوا عليه، وحمدهم على صوابهم الَّذي هو أكثر أقوالهم، ولم يبرِّئهم من الزَّلل كما لم يبرِّئوا أنفسهم منه، فهذا هو الطَّالب المتمسِّك بما عليه السَّلف الصَّالح، وهو المصيب لحظِّه والمعاين لرشده، والمتَّبع لسنَّة نبيِّه ﷺ وهدي صحابته رضي الله عنهم.

ومن أعفَّ نفسه من النَّظر، وأضرَبَ عمَّا ذكرنا، وعارض السُّنن برأيه، ورام أن يردَّها إلى مبلغ نظره فهو ضالٌّ مضلٌّ، ومن جهل ذلك كلَّه ـ أيضًا ـ وتقحَّم في الفتوى بلا علم فهو أشدُّ عمى وأضلُّ سبيلاً»[6].

وقطع أبو عبد الله بن خويز منداد البصري المالكي بمنع التَّقليد فقال: «كلُّ من اتَّبعت قوله من غير أن يجب عليك قَبوله لدليل يوجب ذلك، فأنت مقلِّده، والتَّقليد في دين الله غير صحيح، وكلُّ من أوجب عليك الدَّليل اتِّباع قوله، فأنت متَّبعه والاتِّباع في الدِّين مسوغ والتَّقليد ممنوع»[7].

وقد نصَّ القاضي عبد الوهَّاب في كتاب «المقدِّمات في أصول الفقه» على فرضيَّة الاجتهاد، وأطال الكلام في تقرير ذلك في نحو كرَّاسة.

وقال في ذمِّ التَّقليد ـ بعدما ذكر الآيات في الحثِّ على النَّظر والتَّفكُّر والاعتبار والتَّدبُّر ـ: «والتَّفقُّه من التَّفهُّم والتَّبيُّن، ولا يكون إلاَّ بالنَّظر في الأدلَّة واستيفاء الحجَّة دون التَّقليد، لا يثمر علمًا، ولا يفضي إلى معرفة، وقد جاء النَّصُّ بذمِّ من أخلد إلى تقليد الآباء والرُّؤساء، واتِّباع السَّادة والكبراء، تاركًا بذلك ما ألزمه من النَّظر والاستدلال وفرض عليه من الاعتبار والاجتهاد، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: 70]، وقال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: 22]، في نظائر من الآيات، تنبيه بها على خطر التَّقليد بأن فيه نزع اتِّباع الأدلَّة، والعدول عن الانقياد إلى قول من لا يعلم أنَّه فيما تقلَّد فيه مصيب أو مخطئ، فلا يأمن من التَّقليد لغيره كون ما يقلِّده فيه خطأً أو جهلاً؛ لأنَّ صحَّة المذهب لا تتبيَّن من فساده باعتقاد المعتقد له وشدَّة تمسُّكه به، وإنَّما يتميَّز صحيح المذاهب من فسادها، وحقّها من باطلها بالدَّلالة الكاشفَة عن أحوالها، والمميِّزة بين أحكامها، وذلك معدومٌ في المقلِّد؛ لأنَّه متَّبع لقَول لا يعرف صحَّته من فساده، وإنَّما اعتقدَه لفوق مقلّده به».

وعدَّ الإمام القرافي الاجتهادَ من فروض الكفايات، فقال: «فيمن يتعيَّن عليه الاجتهاد: أفتى أصحابنا ـ رضي الله عنهم ـ بأنَّ العلم على قسمين: فرض عين، وفرض كفاية...

ففرض العين الواجب على كلِّ أحد، هو علمه بحالته الَّتي هو فيها...

وأمَّا فرض الكفاية فهو العلم الَّذي لا يتعلَّق بحالة الإنسان: فيجب على الأمَّة أن تكون منهم طائفة يتفقَّهون في الدِّين ليكونوا قدوة للمسلمين، حفظًا للشَّرع من الضَّياع، والَّذي يتعيَّن لهذا من النَّاس: من جاد حفظه، وحسن إدراكه، وطابت سجيَّته وسريرته، ومَن لا، فلا»[8].

(5) انظر: «المقدِّمة في أصول الفقه» (140 وما بعدها).
(6) انظر: «جامع بيان العلم» (2/329 وما بعدها).
(7) نقله عنه ابن عبد البر في المصدر السابق (2/233).
(8) انظر: «شرح تنقيح الفصول» (435).



ثانيا

بروز أئمَّة مجتهدين

لقد برز كثير من علماء المذهب، تحرَّروا من قيود التَّقليد، وخرجوا إلى فضاء النَّظر والاستدلال، وبلغوا رتبة الاجتهاد، واستكملوا أدواته؛ فمنهم من ادَّعاه لنفسه، ومنهم من وصف بذلك، وهذه الاجتهادات مكَّنتهم من الاستقلال بالرَّأي، وتبنِّي اختيارات فقهيَّة خارجة عن المذهب، وترجيح آراء صارت العمدة في القضاء والفتيا، وقد كان لعلماء الأندلس اليد الطُّولى في هذا المجال، فقد «اشتهر عدد من أعيان المذهب المالكي ومؤسِّسي مدرسته بالأندلس بالخروج عن المذهب ومخالفة رأي الإمام مالك، والأخذ بما عليه غيره من الأئمَّة المجتهدين، وفي هذا دلالة واضحة على الاطِّلاع الواسع لهؤلاء الفقهاء على آراء غيرهم من الأئمَّة واجتهاداتهم الفقهيَّة، وتوسّعهم في المعرفة وبعدهم عن التَّعصُّب المذهبي والتَّمسُّك بالدَّليل»[9].

ومن هؤلاء علماء المذهب الَّذين بلغوا رتبة الاجتهاد، واستكملوا أدواته عبر الأعصار في مختلف الأمصار.

ففي القرن الثَّالث نجد من تتلمذ على يد الإمام مالك رحمه الله، قد خالفه في مسائل عدَّة[10]، منهم:

يحيى بن يحيى بن كثير اللَّيثي القرطبي المتوفَّى سنة (224هـ)، أشهر رواة «الموطَّأ»، كانت له آراء خالف فيها الإمام مالكًا[11].

(9) «المدرسة المالكية الأندلسية إلى نهاية القرن الثالث الهجري» (284) إعداد الأستاذ مصطفى الهروس. طبعة: وزارة الأوقاف المغربية سنة 1418هـ/ 1997م، وانظر كتاب «الاجتهاد والمجتهدون» للكتاني.

(10) انظر: «المدرسة الأندلسية» (284)، و«مباحث في المذهب المالكي بالمغرب» د عمر الجيدي (282).

(11) انظر: «ترتيب المدارك» (379/3)، و«الديباج المذهب» (350)

وعبد الملك بن حبيب السُّلمي القرطبي (238هـ)، له اختيارات كثيرة خالف بها المذهب معتدًّا برأيه، وربَّما ظهر له رجحانه، واختياراته الفقهيَّة مبثوثة في مختلف كتب الفروع الَّتي دوِّنت بعده[12].

وسحنون بن سعيد التَّنُّوخي القيرواني (240هـ)، ناشر المذهب المالكي في إفريقيا ومدوِّن مسائله، تجده خالف مالكًا في كثير من المسائل، وتقف على هذه الاختيارات في مدوَّنة المذهب بروايته، وقد تابعَه في بعض منها من جاء بعده، مرجِّحًا لها على غيرها[13].

وابن القاسم: قاسم بن محمَّد بن قاسم القرطبي أبو محمَّد (278هـ)، برع في الفقه، وذهب مذهب الحجَّة والنَّظر، وترك التَّقليد، ألَّف كتابًا في الرَّدِّ على ابن مزين والعتبي وعبد الله بن خالد سمَّاه: «الرَّدّ على المقلِّدة»، أو «الإيضاح في الرَّدِّ على المقلِّدين»[14].

وفي القرن الرَّابع، برز عدَّة علماء، تركوا التَّقليد، واختاروا مسائل خالفوا بها المذهب، منهم:

محمَّد بن عمر بن لبابة القرطبي (314هـ)، كان مستقلاً في رأيه، خالف المذهب في مسائل[15].

وأحمد بن أحمد بن زياد الفارسي أبو جعفر (319هـ)، كان فقيهًا نبيلاً ثقة، مذهبه النَّظر ولا يرى التَّقليد[16].

وعبد الله بن أبي زيد القيرواني (386هـ)، إمام المالكيَّة في عصره، له آراء خاصَّة لم يقلِّد فيها غيره[17].

وعبد الخالق بن خلف بن سعيد بن شبلون القيرواني (391هـ)، فقيه جليل كان عليه الاعتماد في الفتوى بعد ابن أبي زيد القيرواني، ألَّف كتابًا سمَّاه: «المقصد» يقع في أربعين جزء، كان مستقلَّ الرِّواية يفتي في مسائل برأيه مخالفًا لرأي غيره[18].

وعبد الله بن إبراهيم أبو محمَّد الأصيلي المتوفَّى سنة (392هـ)، كان من حفَّاظ مذهب مالك، من أعلم النَّاس بالحديث وأبصرهم بعلله ورجاله، تكلَّم على الأصول وترك التَّقليد، وكان يجتهد رأيه ولا يبالي أوافق مالكًا أم خالفه، وكان إذا استفتي عن مسألة قال للسَّائل: عن مذهب مالك تسألني أم عمَّا يقتضيه العلم بإطلاق؟[19].

(12) انظر: «ترتيب المدارك» (122/4)، و«الديباج المذهب» (154).

(13) انظر: «ترتيب المدارك» (45/4)، «الديباج المذهب» (160).

(14) انظر «ترتيب المدارك» (448/4) «الديباج المذهب» (144).

(15) انظر «ترتيب المدارك» (153/5) «الديباج المذهب» (245) مباحث (283).

(16) انظر: «الديباج المذهب» (37).

(17) انظر: «ترتيب المدارك» (215/2)، و«الديباج المذهب» (136)، و«مباحث في المذهب المالكي» (284).

(18) انظر: «ترتيب المدارك» (263/6)، و«مباحث في المذهب المالكي» (284).

(19) انظر: «ترتيب المدارك» (135/7)، و«الديباج» (138)، و«الفكر السَّامي» (117/2).

وفي القرن الخامس ظهر علماء، حملوا لواء الاجتهاد، وتركوا التَّقليد، من أشهرهم:

محمَّد بن عمر بن بشْكُوال المعروف بابن الفخَّار القرطبي المتوفَّى سنة (419هـ)، كان حافظًا للحديث عارفًا باختلاف العلماء، له مذاهب أخذ بها في خاصَّة نفسه إذ كان مجتهدًا مستقلاً في رأيه مخالفًا لما عليه المذهب في بعض مسائله[20].

وعُمَر بن محمَّد التَّميمي أبو حفص الشَّهير بالعطَّار التُّونسي، وصف بأنَّه من المجتهدين المبرَّزين، وأئمَّة القرويِّين المعدودين[21].

والحافظ أبو عمر يوسف بن عمر بن عبد البرِّ النَّمري القرطبي (463هـ)، الفقيه المحدِّث حافظ المغرب، كان مستقلَّ الفكر بعيدًا عن الجمود، ومبغضًا للتَّقليد، وصرَّح كلٌّ من ترجم له ببلوغه رتبة الاجتهاد، قال ابن حزم: «وممَّن أدركنا من أهل العلم على الصِّفة الَّتي من بلغها استحقَّ الاعتداد به في الاختلاف ابن عبد البرِّ»[22].

والإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي (474هـ)، الفقيه الحافظ النُّظَّار المتفنِّن حامل لواء المذهب، ووصف بأنَّه من الَّذين ارتقوا درجة الاجتهاد[23].

وعليُّ بن محمَّد الرَّبعي المعروف باللَّخمي الفَاكهاني (478هـ)، فقيهٌ ضليعٌ في المذهب، له كتاب مشهور على «المدوَّنة» سمَّاه «التَّبصرة»، له اختيارات خالف فيها المذهب، قال القاضي عياض: «وقد ضرب به المثل في كثرة اختياراته، حتَّى قال فيه الغلاوي:

واعتمدوا تبصرة اللَّخمي
ولم تكن لجاهل أمي
لكنَّه مزّق باختياره
مذهب مالك لدى امتياره»[24]

وفي القرن السَّادس وما بعده اشتهر كثير من أعيان العلماء ببلوغ رتبة الاجتهاد، والخروج عن المذهب، حتَّى ذاع صيتهم في الآفاق، منهم:

- محمَّد بن أحمد بن رشد القرطبي (520هـ)، زعيم الفقهاء المعروف بدقَّة الفهم وجودة النَّظر مع براعة التَّأليف، نعت بحافظ المذهب، وهو ممَّن بلغ الاجتهاد فيه، نصَّ على ذلك غير واحد[25].

- أبو الطَّاهر إبراهيم بن عبد الصَّمد التَّنُّوخي المهدوي (كان حيًّا سنة 526)، الإمام في الحديث وأصول الفقه والعربيَّة، من الفقهاء الأعلام البالغين درجة الاختيار والتَّرجيح، له مؤلَّفات، منها: «التَّنبيه على مبادئ التَّوجيه»، اعتنى فيه بأسرار التَّشريع واستنباط أحكام الفروع من قواعد الأصول، وذكر أنَّ من أحاط به علمًا بكتابه «التَّنبيه» ترقَّى عن درجة التَّقليد[26].

- محمَّد بن علي بن عُمَر أبو عبد الله التَّميمي المازري (536هـ)، المعروف بالإمام، خاتمة العلماء المحقِّقين، والأئمَّة الأعلام المجتهدين، الحافظ النظَّار، وصف بأنَّه بلغ رتبة الاجتهاد، وقد عجب السُّبكي كيف لم يدَّع الاجتهادَ مع أنَّه استجمع أدواته، بل نصَّ على بلوغه درجةَ الاجتهاد كلُّ مَن ترجم له[27].

- الإمام أبو بكر محمَّد بن عبد الله بن العربي الإشبيلي المتوفَّى سنة (543هـ)، فقيه متبحِّر مشارك في العلوم، تضلَّع في الفقه والخلافيَّات والحديث والأصول، قد خالف المذهب وأتباعه في كثير من المسائل، بل وصف نفسه بالاجتهاد في غير موضع من كتبه، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهل أنا إلاَّ ناظر من النُّظَّار أدين بالاختيار وأتصرَّف في الأصول بمقتضى الدَّليل»[28]، قال الحافظ الذَّهبي: «كان أبو بكر ممَّن يقال: إنَّه بلغ رتبة الاجتهاد»[29].

- القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (544هـ)، الفقيه الأصولي المحدِّث، وصف بأنَّه وصل درجة التَّخيير والتَّرجيح[30].

- العلاَّمة أحمد بن محمَّد بن منصور بن أبي القاسم أبو العبَّاس، المنعوت بناصر الدِّين الجروي الجذامي الإسكندراني المعروف بابن المنيِّر (683هـ)، علاَّمة الإسكندريَّة وفاضلها، كان إمامًا بارعًا، برع في الفقه ورسخ فيه، وفي الأصلين والعربيَّة وفنون شتَّى، وله اليد الطُّولى في علم النَّظر وعلم البلاغة والإنشاء، وكان متبحِّرًا في العلوم مدقِّقًا فيها، له الباع الطَّويل في علم التَّفسير والقراءات، نقل السُّيوطي عن ابن فرحون أنَّه قال: «كان ممَّن له أهليَّة التَّرجيح والاجتهاد في مذهب مالك»[31].

- العلاَّمة الشَّريف التِّلمساني محمَّد بن أحمد بن علي أبو عبد الله، الشَّيخ الفقيه الإمام العالم العلاَّمة الشَّهير الكبير (771هـ)، وصف ببلوغه درجة الاجتهاد، وممَّن صرَّح بذلك

(20) انظر: «الديباج» (171)، و«الفكر السَّامي» (203/2)، و«شجرة النُّور» (112).
(21) انظر: «نيل الابتهاج» (299)، و«شجرة النُّور» (107).
(22) انظر «ترتيب المدارك» (128/8) «تذكرة الحفاظ» (306/3) «الديباج» (257).
(23) انظر «المدارك» (117/8) «الديباج» (120) «الفكر السامي» (455/2).
(24) انظر «بوطليحة» (74) لمحمد النابغة بن عمر الغلاوي.
(25) انظر «الديباج» (278) «شجرة النور» (128) «الفكر السامي» (219/2).
(26) انظر «الديباج» (265/1)، «شجرة النور» (126).
(27) انظر «الديباج» (279)، «شجرة النور» (136) «الفكر السامي» (221).
(28) انظر «العواصم من القواصم» (74/2).
(29) انظر «سير الأعلام» (201/20) «تذكرة الحفاظ» (62/4).
(30) انظر «الديباج» (168) «شجرة النور» (140) «الفكر السامي» (223).
(31) انظر «الرد على من أخلد إلى الأرض» (57)، ولم أقف على عبارته في «الديباج» (245)، والله أعلم.

عصريُّه الخطيب ابن مرزوق الجدُّ[32].

ولو ذهبنا نحصر المجتهدين المبرِّزين في كلِّ عصر، وممَّن حصل على أدوات الاجتهاد، لخرج ذلك في سفر كبير، يكفي الإشارة إلى أنَّ حركة الاجتهاد لم تتوقَّف، فامتدَّت إلى القرن الرَّابع عشر بل إلى القرن الحديث، فقد برز أعلام، حملوا أعلام الاجتهاد، وبلغوا رتبته، واستجمعوا أدواته.

وفي العصر الحديث برزت جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين، برئاسة عبد الحميد بن باديس، فحملت على عاتقها شعار الإصلاح في جميع الميادين، ومنها إصلاح التعليم، والدَّعوة إلى الاجتهاد والتَّمسُّك بالنُّصوص.

قال الشَّيخ عبد الحميد بن باديس ـ وهو يذمُّ التَّقليد ـ: «كما أُدخلت على مذهب أهل العلم بدعة التَّقليد العامِّ الجامد الَّتي أماتت الأفكار، وحالت بين طلاب العلم معين السُّنَّة والكتاب، بل صيَّرتهما في زعم قوم غير محتاج إليهما من نهاية القرن الرابع إلى قيام الساعة، لا في فقه ولا استنباط ولا تشريع استغناء عنهما ـ زعموا ـ بكتب الفروع عن المتون والمختصرات، فأعرض الطُّلاَّب عن التَّفقُّه في الكتاب والسُّنَّة وكُتب الأئمَّة، وصارت معانيها الظَّاهرة بله الخفيَّة مجهولة حتَّى عند كثير من كبار المتصدِّرين»[33].

وقال الرَّجل الثَّاني في الجمعيَّة العلاَّمة البشير الإبراهيمي في ذمِّه للتَّقليد وبيان آثاره الوخيمَة: «والمذاهب الفقهيَّة في حدِّ ذاتها ليسَت هي الَّتي فرَّقت المسلمين، وليس أصحابُها هُم الَّذين أَلزَموا النَّاس بها أو فَرضوا على الأمَّة تقليدَهم، فحَاشَاهُم من هذا، بل نَصحُوا وبيَّنوا وبَذلوا الجُهد في الإبلاغ، وحَكَّمُوا الدَّليل ما وجَدوا إلى ذلك السَّبيل، وأتَوا بالغَرائب في باب الاستنباط والتَّعليل، والتَّفريع والتَّأصيل، ولهم في باب استخراج عِلَل الأحكام، وبناء الفُروع على الأصول، وجَمع الأشباه بالأشبَاه، والاحتياط ومُراعاة المصالح ما فاقُوا به المشرِّعين في جميع الأمَم.

وإنَّما الذي نَعُدُّه في أسباب تفرُّق المسلمين هو هذه العصبيَّة العَميَاء الَّتي حَدثَت بعدهم للمذاهب، والتي نَعتقد أنَّهم لو بُعثوا من جديد إلى هذا العالم لأنكروها على أتباعهم ومُقلِّديهم، وتبرَّأوا إلى الله منهم ومنها، لأنَّها ليست من الدِّين الذي ائْتُمِنوا عليه، ولا من العلم الذي وَسَّعوا دائرَته.

وكيف يرضَون هذه العصبيَّة الرَّعناء ويُقرُّون عليها مُقلِّدَتهم؟!

ومن آثارها فيهم جَعلُ كلام غير المعصوم أصلاً، وكلامَ الله ورسوله فَرعًا يُذكَر للتَّقوية والتَّأييد إنْ وَافَق، فإن خالَف أُرغِم بالتَّأويل حتَّى يُوافِق، وهذا شرُّ ما بَلَغته العصبيَّةُ بأهلها.

ومن آثارها فيهم معرفَة الحقِّ بالرجال، ومن آثارها فيهم اعتِبَار المخالف في المذهَب كالمخالف في الدِّين يختلف في إمامته ومُصاهرتِه وذكاته وشهادته إلى غير ذلك ممَّا نَعُدُّ منه ولا نُعَدِّدُه.

وقد طَغَت شُرور العصبيَّة للمذاهب الفقهيَّة في جميع الأقطار الإسلاميَّة، وكان لها أسوأُ الأثَر في تفريق كلمة المسلمين، وإنَّ في وجه التَّاريخ الإسلامي منها لنُدُوبًا.

أمَّا آثارها في العلوم الإسلاميَّة فإنَّها لم تمدَّها إلاَّ بنوع سخيف منَ الجدل المكابر، لا يُسمِن ولا يُغنِي من جُوع، ولا عَاصِم من شُرور هذه العصبيَّة إلاَّ صرفُ النَّاشئة إلى تعليم فقهيٍّ يستند على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادها لبُلُوغ مراتِب الكمال، وعدم التَّحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حدٍّ»[34].

وبرز العلاَّمة الشَّيخ طاهر بن عاشور بتونس المتوفَّى سنة 1393هـ/1973م، فقد وصفَه تلميذه الشَّيخ محمَّد الحبيب ابن الخوجة فقال: «لم يعش بعيدًا عن وَعْي الواقع، منصرفًا إلى أوراقه وبحوثه النَّظرية، دون النَّظر في كيفية تنزيل الأحكام الشَّرعية على واقع النَّاس، وتقويم حياتهم بقيَم الإسلام في الكتاب والسُّنَّة، والارتقاء بأدوات الاجتهاد، والتَّعامل مع النُّصوص التَّكليفيّة في الكتاب والسُّنَّة، تفسيرًا، وبيانًا، واجتهادًا، وفق منهج علمي أصيل».

فقد كان مجتهدًا مجدِّدًا، رفض دعوى أنَّ باب الاجتهاد قد أغلق في أعقاب القرن الخامس الهجري، ولا سبيل إلى فتحه مرة أخرى، وكان يرى أنَّ ارتهان المسلمين لهذه النَّظرة الجامدة المقلِّدة سيُصيبهم بالتَّكاسل، وسيعطِّل إعمال العقل لإيجاد الحلول لقضاياهم التي تجدُّ في حياتهم، وألَّف كتابه في مقاصد الشريعة الإسلامية الَّذي بعث به روح الاجتهاد، ورسم به المنهج المقاصدي لتطويره وتفعيله[35].

وبرز في شنقيط (موريتانيا) علماء كبار، اشتهروا بالاجتهاد، واستكمال أدواته، ومن أشهرهم: الشَّيخ محمَّد الأمين بن محمَّد المختار الشنقيطي المتوفَّى 1393هـ، صاحب كتاب «أضواء البيان»، فقد بلغ رتبة الاجتهاد، ونصَّ على مشروعيَّته، وأنكر على مَن منعه في الشَّرع مطلقًا[36].

(32) انظر «كفاية المحتاج» (336).
(33) انظر: «آثار عبد الحميد بن باديس» (5/38).
(34) انظر «آثار البشير الإبراهي» (1/166.165).
(35) انظر «مقاصد الشريعة الإسلامية» (165).
(36) انظر «أضواء البيان» (3/146؛ 4/172).



ثالثا

العناية بأصول الفقه

مما لاشك فيه أنّ علم أصول الفقه وسيلة مهمّة لبلوغ رتبة الاجتهاد، فهو يفتح آفاق الاجتهاد وينظّم مسالكَه، ويضبط المجتهدين من الانحراف في الاستدلال، ويذلّل لهم طرق الاستنباط.

ومعلوم أنّ حوادث الناس تتجدّد، والنوازل تتعدّد، فكان على المجتهدين ضبط قواعد كلّيات، تندرج فيها أحكام تلك الجزئيّات، وهذا مبني على الاجتهاد والاستنباط والإلحاق، ويرجع هذا إلى أصول الفقه وقواعده.

وقد نصَّ علماء المذهب على اشتراط أصول الفقه في المجتهد. قال الباجي في بيان صفة المجتهد: «ويكون عالما بأصول الدّيانات وأصول الفقه، عالما بأحكام الخطاب من العموم والأوامر والنواهي والمفسَّر والمجمل والنَّص والنسخ وحقيقة الإجماع.

قال: فإذا كملت له هذه الخصال كان من أهل الاجتهاد، جاز له أن يفتي وجاز للعامّي أنْ يقلّده فيما يفتي فيه»[37].

وقال ابن رشيق: «أنْ يكون عارفًا بكيفية استثمار الأحكام من أصولها، وهي الكتاب والسُّنَّة وإجماع الأمَّة والقياس»[38].

وقال ابن جُزي: «المعرفة بأصول الفقه، فإنَّه الآلة الَّتي يتوصَّل بها للاجتهاد»[39].

ولقد اهتمَّ علماء المذهب بأصول الفقه، وصنّفوا فيه التآليف في وقت مبكّر، وأسهموا في تيسير الاجتهاد وتذليل طرقه للمجتهدين، وضبط مسالك الاستدلال، حتَّى جاوزت مؤلَّفاته مائتي كتاب، وفي هذا ردٌّ واضح على من ادَّعى قصور المالكية في ذلك، فلقد أبدعوا في تأليف الأصول، فـ«مقدمة في الأصول» لابن القصَّار، و«التَّقريب والإرشاد» للقاضي أبي بكر الباقلاني، و«الملخَّص في الأصول» للقاضي عبد الوهاب الَّذي نقل عنه غير واحد، و«إحكام الفصول»، للباجي، و«منتهى السُّول» والأمل»، و«مختصره» لابن الحاجب، و«المحصول من علم الأصول» لأبي بكر بن العَربي، و«إيضاح المحصول من برهان الأصول» للمازري، و«تنقيح الفصول وشرحه» و«نفائس الأصول» و«العقد المنظوم في الخصوص والعموم» ثلاثتها للقرافي، و«لباب المحصول» لابن رشيق، و«تقريب الوصول» لابن جزي، و«الموافقات» للشاطبي وغيرها ممَّا جادت به قريحة أولئك الفحول في علم الأصول، وصار من جاء بعدهم عيالا عليها شرحا واختصارًا، ونقلا وتعليقا؛ ولولا خشية الإطالة لذكرنا ثبت أعيان الأصوليِّين المالكيِّين ومؤلَّفاتهم عبر العصور والدهور على ما ورد في كتب التَّراجم وفهارس الكتب[40].

ويكفي الإشارة أنّهم ممَّن كان لهم السَّبق في تدوين أصول الفقه، فقد ألَّف إمام المذهب مالك بن أنس كتاب «الموطأ»، إشارة منه إلى الأصول التي اعتمد عليها في الاجتهاد، قال أبو بكر بن العربي: «هذا أوَّل كتاب ألِّف في شرائع الإسلام وهُو آخره؛ لأنَّه لم يؤلَّف مثلُه إذ بنَاه مالك رضي الله عنه على تمهيد الأصول للفُروع، ونبَّه فيه على معظم أصول الفقه الَّتي ترجع إليها مسائله وفروعُه»[41]، ثمَّ توالى أتباعُه بالتَّأليف من بداية القرن الثالث:

فالإمام أبو عبد الله أصبغ بن الفرج (225هـ)، له كتاب الأصول في عشرة أجزاء، وعرف بـ«أصول أصبغ»[42].

وابن قاسم المتقدِّم في طبقات المجتهدين، قد تقدَّم أنَّ له كتابًا في: «الردّ على المقلّدة»، أو «الإيضاح في الرَّدِّ على المقلِّدين»، وله أيضًا: «كتاب في خبر الواحد».

وإسماعيل بن إسحاق الجَهْضَمي الأزدي القاضي (282هـ)، ذكر مترجموه أنَّ له كتابًا في الأصول[43].

وأبو يحيى زكريا بن يحيى الكَلاَعي القُرطبي (300هـ)، صنَّف كتابًا في الأصول[44].

(37) انظر: «إحكام الفصول» (ف/784).
(38) انظر « لباب المحصول» (711/2).
(39) انظر «تقريب الوصول» (435)، وكذا «شرح التَّنقيح» (437).

(40) انظر «المصادر الأصوليَّة عند المالكيَّة» إعداد مولاي الحسين الحيان.
(41) انظر «القبس» (75/1).
(42) انظر «المدارك» (20/4).
(43) انظر «ترتيب المدارك» (292/4).
(44) انظر «التكملة» (263/1).



رابعا

العناية بأحكام النَّوازل

ممَّا يبرز إسهامَ العلماء المالكيَّة في تقرير الاجتهاد عنايتُهم بالنَّوازل المستجدَّة والحوادث والقضايا الجَديدة، الَّتي كانت تعتري النَّاس في حياتهم اليوميَّة، على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم، فتصدَّوا لها بالنَّظر والاجتهاد، والاستدلال والاستنباط، لمعرفة أحكامها بالأدلة الشرعية وتوابعها.

وتتجلَّى مساهمة علماء المذهب، تأليفهم في النوازل الفقهية، وبروز كثير منهم، وصفوا بحسن الاستنباط في النوازل، والمعرفة بها، وبدأ التَّدوين من القرن الثَّالث، فصنَّف سُحنون بن سَعيد التَّنوخي (240هـ) كتاب «المدونة»، وهو مسائل، سئل عنها ابن القاسم فأجاب عنها بما سمعه من الإمام مالك، وإذا لم يجد جوابا عن الإمام أجاب باجتهاد رأيه.

وصنَّف ابنه محمَّد بن سحنون (256هـ) كتاب «أجوبة الفقهاء»[45].

وصنَّف محمَّد بن أحمد بن عبد العزيز العُتبي القُرطبي (254هـ) «المستخرجة» الشهيرة بـ«العُتْبية»، ضمَّنها مسائل ابن القاسم عن مالك، وآراء تلاميذه وأتباعه، وكثَّر فيها من الرِّوايات المطروحة والمسائل الشَّاذة.

ثمَّ تتابع التَّأليف عبر مختلف القُرون، ومن أشهر المؤلَّفات في ذلك:

«منتخب الأحكام»، لمحمَّد بن عبد الله الإلبيري المعروف بـابن أبي زَمنين (399هـ)، وهو مطبوع ومتداول.

(45) ذكره في «الديباج» (239) بعنوان: «كتاب الجوابات»، وتوجد نسخة خطية بالخزانة العامة بالرباط، رقم: 1341د.

و«المسائل القسطنطينية» للقاضي أبي بكر الباقلاني، له أيضا: «جواب أهل فلسطين»، و«مسائل سأل عنها ابن عبد المؤمن»[46].

و«فصول الأحكام فيما جرى به عمل المفتين والحكَّام»[47]، للقاضي أبي الوليد الباجي.

و«نوازل الأحكام» أو «فتاوى أبي مطرِّف» ويسمَّى أيضا: «نوازل الشَّعبي»، لأبي المطرف عبد الرَّحمن بن قاسم الشَّعبي المالقي (497هـ)، طبع بتحقيق الصَّادق الحلوي.

و«مُعين الحكَّام في نوازل القَضايا والأحكام» لإبراهيم ابن حسن الرَّبعي التُّونسي المكنى بابن عبد الرَّفيع (513هـ)، قام بتحقيقه د. محمود علي مكي، ود. محمَّد عبد الوهاب خلاف.

و«فتاوى ابن رشد» لأبي الوليد محمد بن أحمد القرطبي (520هـ) جمعها تلميذاه الفقيهان القرطبيان: أبو الحسن محمَّد بن الوزان، وأبو مروان عبد الملك بن مسَرَّة، وهو مطبوع ومتداول بتحقيق د. مختار التليلي.

و«نوازل الأحكام» أو «الفصول المقتضبة من الأحكام المنتخبة»[48]، للقاضي أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله النُّميري المعروف بابن الحاج الغرناطي (769هـ).

و«مذاهب الحكام في نوازل الأحكام»، للقاضي عياض، جمعها ولده محمَّد بن عياض. وهو مطبوع بتحقيق د. محمد بن شريفة؛ وله أيضًا: كتاب «الأجوبة المحبرة على الأسئلة المتخيرة»، وكتاب «أجوبة القرطبيِّين»، وكتاب «أجوبته عمَّا نزل في أيَّام قضائه من نوازل الأحكام».

و«المفيد للحكَّام فيما يعرضُ لهم من نوازل الأحكام»[49]، لأبي الوليد هشام بن عبد الله الأزدي القرطبي (606هـ).

و«معين الحكَّام في نوازل القضَايا والأحكام»، لابن عبد الرَّفيع إبراهيم بن حسن التُّونسي (733هـ)، وقد طبع بتحقيق د. محمد بن قاسم بن عياد.

و«العقد المنظَّم للحكَّام فيما يجري بين أيديهم من العقود والأحكام»، لابن سلمون، سلمون بن علي بن عبد الله الكناني الغرناطي (767هـ)[50].

(46) انظر «ترتيب المدارك» (67/7).

(47) انظر «إيضاح المكنون» (193/4).

(48) انظر «إيضاح المكنون» (194/4).

(49) انظر «كشف الظنون» (1778/2)، وتوجد نسخة خطية منه بخزانة القرويين بفاس، رقم: 481.

(50) قد طبع بهامش كتاب «التبصرة» لابن فرحون، وتوجد نسخ منه: في الأزهرية (309535 و314844)، وفي «مخطوطات جامعة الملك سعود» برقم: (327)، والمكتبة الوطنية بتونس برقم: (3858) و«خزانة القرويين».



و«جامع مسائل الأحكام ممَّا نزل بالمفتين والحكام»، للبرزلي أبي القاسم بن أحمد القيرواني ثمَّ التُّونسي (844هـ)، وتعرف أيضًا بـ«نوازل البرزلي»، و«الحاوي في النوازل»، اختصرها الشَّيخ أحمد الونشريسي صاحب «المعيار» واعتمدها مصدَرًا لكتابه، وقد طبعت بتحقيق الأستاذ محمَّد الحبيب الهيلة.

و«فتاوى الشاطبي»، لأبي إسحاق الشَّاطبي (790هـ)، وقد طبعت بتحقيق د. محمَّد أبو الأجفان سنة (1404هـ).

و«الدُّرر المكنونة في نوازل مازونة»[51]، للمازوني يحيى بن موسى بن عيسى المغيلي (883هـ)، جمع فيها فتاوى المتأخِّرين من أهل تونس والجزائر وتلمسان، وهي من مصادر كتاب «المعيار» للونشريسي.

و«المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب»، لأبي العبَّاس أحمد بن يحيى الونشريسي (914هـ). وهو أكبر موسوعة نوازليَّة في المغرب، جمع فيه مؤلِّفه فتاوى المتقدِّمين والمتأخِّرين من فقهاء المغرب والأندلس، بالإضافة إلى فتاويه الخاصَّة، وهو مطبوع ومتداول.

واستمرَّ التَّأليف إلى العصور المتأخِّرة، ومن نوازل المتأخِّرين:

«النَّوازل الصُّغرى أو المنح السَّاميَّة في النَّوازل الفقهيَّة»[52] للمهدي بن محمد الوزَّاني العمراني الحَسني الفاسي، آخر المفتين الكبار المؤلفين في النَّوازل (1342هـ)، جمع فيه فتاوى المتأخِّرين من علماء المغرب.

(51) توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنيَّة بالجزائر؛ وبالخزانة العامَّة بالرِّباط رقم: (883د)، وبالمكتبة الوطنية بتونس (217 و3502)، وهو قيد التحقيق.

(52) حقَّقه عمر بن عبَّاد في 11 مجلَّدا.

و«النَّوازل الجديدة الكبرى في أجوبة أهل فاس وغيرهم من البدو والقرى» أو «المعيار الجديد الجامع المغرب عن فتاوى المتأخِّرين من أهل المغرب»، وهو للوزَّاني أيضًا، وهو أجود من «معيار الونشريسي» إذ امتاز بذكر فتاويه، وفتاوى غيره من أهل فاس وغيرهم من معاصريه وشيوخه من المتأخِّرين، وأضاف إليه فتاوى بعض المتقدِّمين الأندلسيِّين والقيراونيِّين والبجائيِّين والتِّلمسانيِّين وغيرهم[53].

و«نتائج الأحكام في نوازل الأحكام»[54] لأحمد بن محمَّد الرَّهوني التَّطواني (1373هـ).

و«الأجوبة الرَّشيدة في حَلِّ النَّوازل الفقهيَّة والمعاملات المعاصرة» للفقيه رشيد بن الفقيه محمَّد الشَّريف العلمي، ولد سنة (1934م)، وقد طبع في المغرب سنة (2004م).

وغيرها ممَّا صنِّف في هذا الشَّأن ممَّا يصعُب حصرُه واستقصاؤه.

هذه أهمُّ الجوانب الَّتي تكشف دور العُلماء المالكية ومدى إسهامهم في تقرير الاجتهاد وتيسيره، وفتح أبوابه وتذليل صعابه، دعوةً وممارسةً وشهادةً وتصنيفًا، وهذا ردٌّ على مَن يرمي المالكية بالتَّعصُّب المذهبي، والتَّقليد الفقهي.

(53) طبع بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب في أربعة أجزاء سنة (1929م).

(54) توجد نسختان خطيتان منه بالخزانة العامة بالرباط ورقمهما: (2160د و2164د).



كيفية الاشتراك..



يرجى إرسال طلب يتضمن الأمور التالية:

- الاسم واللقب.
- العنوان.
- الهاتف.
- الوظيفة.
- وصل الحوالة البريدية.

ترسل الحوالة البريدية باسم توفيق عمروني على الحساب البريدي الجاري:

ccp 4142776 clé 96

●●●

العنوان: دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الأفراد: 900 دج - المؤسسات 1000 دج

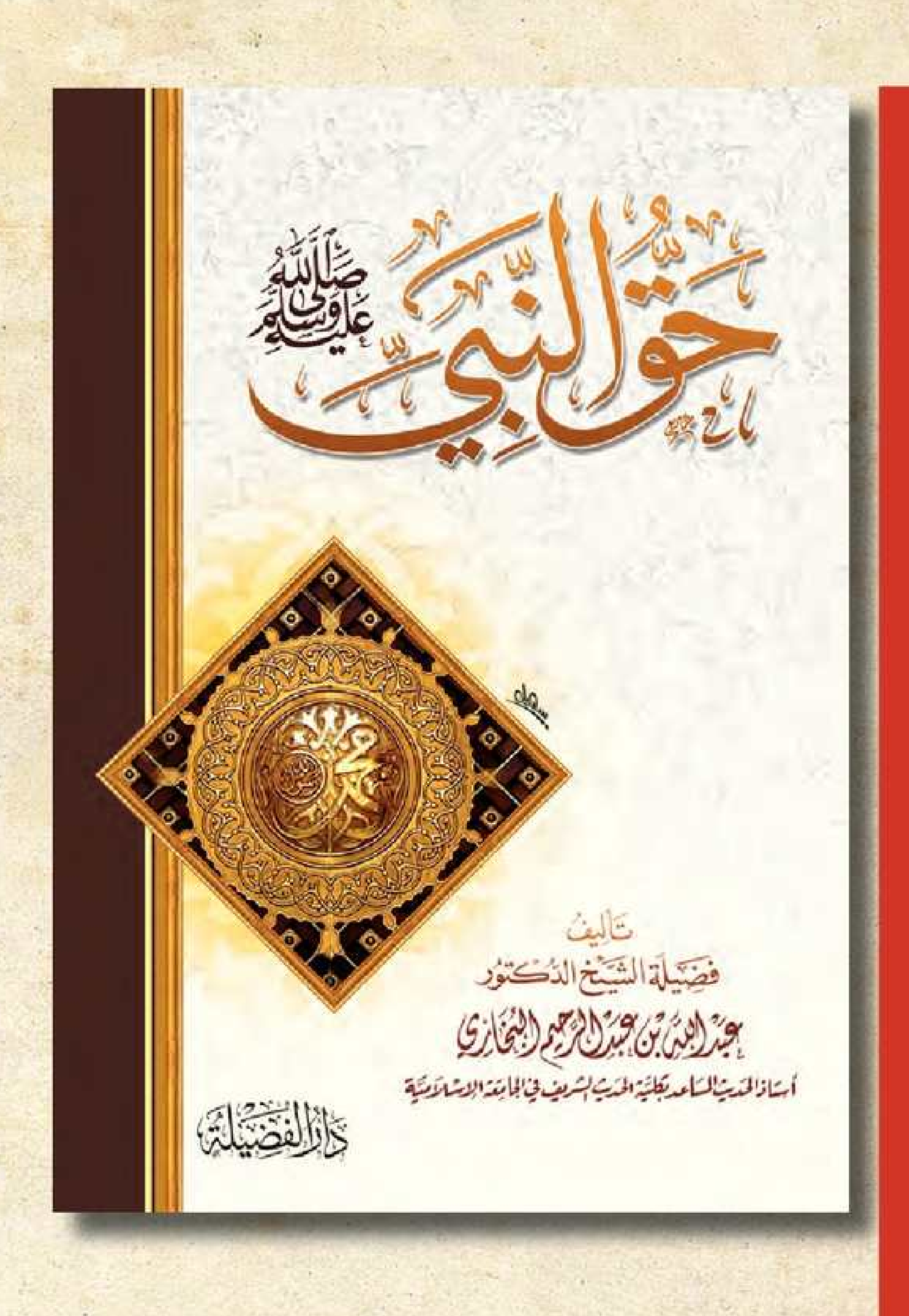


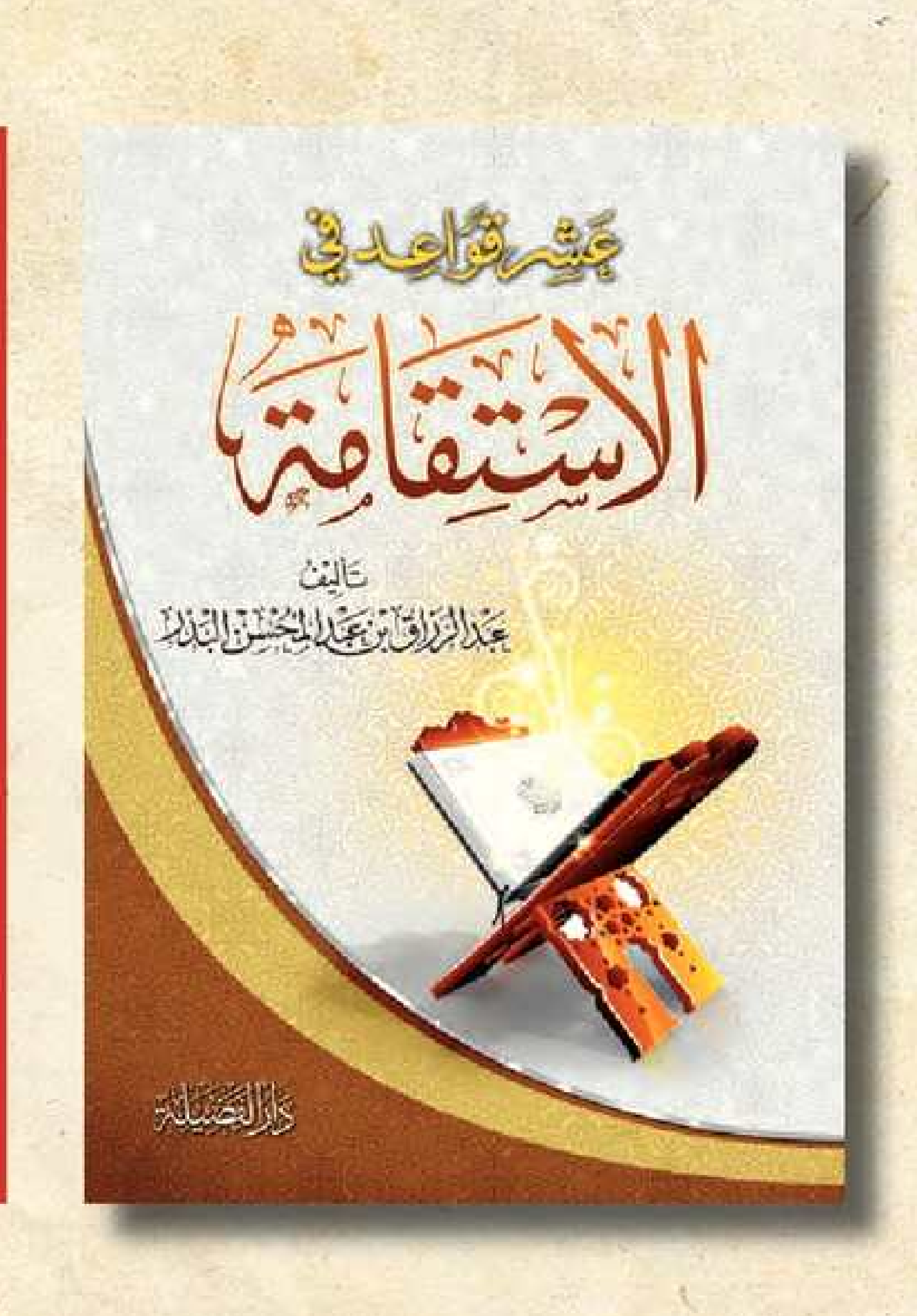
الإصلاح في ثلاث مجلدات من العدد (1) إلى العدد (18)

يطلب من دار الفضيلة للنشر والتوزيع بسعر (1800 دج) شامل لمصاريف الشحن

صدر حديثا عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع:







قريبا عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع: (مطويات)









حي باحة (3)، رقم (28) الليدو. المحمدية. الجزائر

الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

الجوال: 92 99 06 (0559)

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

هذا سؤال توجه به عضو هيئة تحرير مجلة الإصلاح الشيخ عمر الحاج مسعود إلى فضيلة الشَّيخ الدُّكتور محمد بن هادي المدخلي بتاريخ: (1433/05/03) في بيته بالمدينة النبوية، ونصه:

ما هي المنهجيَّة النَّافعة في طلب العلم، وما هي الكتب الَّتي تنصحون بها في سائر الفنون؟

فأجاب حفظه الله.

المنهجية في طلب العلم

د. محمد بن هادي المدخلي
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية ـ المدينة النبوية

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فإنَّ هذا السُّؤال يتكرَّر دائمًا، وهو في الحقيقة الرُّكن الرَّكين في تحصيل العلم الصَّحيح المتين الَّذي تنبني عليه شخصيَّة طالب العلم في أوَّل الطَّلب، ثمَّ التَّمكُّن من الطَّلب ثمَّ ـ إن شاء الله ـ يكون عالمًا بفضله ورحمته ثمَّ بسبب سيره إن أحسن السَّير في هذا الطَّريق.

المنهجيَّة في طلب العلم أوَّل شيء فيها هو التَّدرُّج في الطَّلب والتَّلقِّي، وهذا يكون بأخذ العلم شيئًا فشيئًا، فيبدأ بمختصرات العلوم في جميع الفنون، فأوَّلاً بعدما يفرغ من كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ قراءةً وتصحيحًا من حيث اللَّحن الظَّاهر الجلي، في الحركات، وتصحيحًا من حيث اللَّحن الخفي فيما يتعلَّق بأمور التَّجويد، فإذا فرغ من ذلك فينبغي لطالب العلم ـ مع قراءته للقرآن حتَّى يتقنه على النَّحو الَّذي ذكرنا ـ حفظ متن في التَّجويد، ولا أحسن من متن «تحفة الأطفال في تجويد القرآن»:

يقول راجي ربِّه الغفور
دومًا سليمان هو الجمزوري
الحمد لله مصلِّيًا على
محمَّد وآله ومن تلا
وبعد هذا النَّظم للمريد
في النُّون والتَّنوين والمدود
سمَّيته بتحفة الأطفال
عن شيخنا الميهيِّ ذي الكمال
أرجوبه أن ينفع الطُّلَّابا
والأجر والقبول والثَّوابا

فهذه التُّحفة تحفة، وهي للأطفال طريفة، فيحفظ كتاب الله على يد ملقِّنه الشَّيخ المقرئ الَّذي يعلِّمه ضبط القراءة، فيسلم من اللَّحن الجلي، فلا يرفع منصوبًا ولا ينصب مرفوعًا، ولا يرفع مجرورًا ولا يجرُّ مرفوعًا، ثمَّ يتقن التَّجويد كأحكام النُّون السَّاكنة والتَّنوين والمدود، وما يتعلَّق بها، ينتقل بعد ذلك إلى حفظ المتون في الفنون، فمثلاً في الحديث يبدأ بـ«الأربعين النَّوويَّة»، فإذا فرغ منها انتقل إلى «عمدة الأحكام»، فإذا فرغ منها انتقل بعد ذلك إلى «بلوغ المرام»، فهذه الثَّلاثة كتب عليها مدار الأحكام في الجملة.

ثمَّ إن أراد التَّوسُّع أخذ ما يسَّر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له، فإذا جاء إلى التَّفسير قرأ مقدِّمة في أصوله، ومن أجملها في اختصارها: «مقدِّمة في أصول التَّفسير» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ الله، فيتقن الأصول والقواعد الَّتي ينبني عليها التَّفسير الصَّحيح، ويعرف بذلك وجوه التَّفسير، الَّتي يقرأها فيما بعد في كتب التَّفسير، هل هي ماشية على القواعد الصَّحيحة أو ليس كذلك، فإذا أخذ مثل هذه المقدِّمة انتفع بها.

بعد ذلك من أحسن ما ننصحه بأن يقرأ فيه في هذا الباب «تفسير ابن كثير» و«اختصاره» الآن الذي بين أيدي النَّاس للشَّيخ أحمد شاكر رحمه الله، فإنَّه واضح العبارة، سهل، وقد أحسن في اختصاره رحمه الله.

وأما ما يتعلق بالتوحيد؛ فهو أصل الأصول الَّذي به أنزلت الكتب وأرسلت الرُّسل - صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين -، وبه النَّجاة في الدَّارين: الدُّنيا والآخرة، في الدُّنيا من غضب الله وعقابه، وفي الآخرة أيضًا من غضب الله وعقابه، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوٓا إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام]، أمن في الدُّنيا وأمن في الآخرة، وهداية في الدُّنيا وهداية في الآخرة إلى طريق جنَّات النَّعيم.

ومن أعظم ما يشتغل به في هذا الباب:

أوَّلًا: «القواعد الأربع»، ثانيًا: «الأصول الثَّلاثة»، ثالثًا: «كتاب التوحيد»، رابعًا: «العقيدة الواسطيَّة»، خامسًا: «تلخيص الحمويَّة»، ثمَّ لا يضر الإنسان أن يقرأ بعد ذلك ما شاء، فيقرأ «الحمويَّة» لأصلها الكبرى، ثمَّ يقرأ بعد ذلك «شرح العقيدة الطَّحاوية»، ولا يضيره بعد ذلك أن يقرأ ما شاء، ولكن لا بدَّ من حفظ «القواعد الأربع»، ولابدَّ من حفظ «الأصول الثَّلاثة»، ولا بدَّ من حفظ «كتاب التَّوحيد»، فإنَّ «كتاب التَّوحيد الَّذي هو حقُّ الله على العبيد» أعظم ما ألِّف في هذا الباب، فقد نفع الله تعالى به نفعًا عظيمًا، فهذا الَّذي أوصي به.

ومن أهم هذه الكتب مقدمة ابن أبي زيد القيرواني وهي مقدِّمة جميلة، مؤلِّفها إمام من أئمَّة السُّنَّة، ولكن لعب فيها الخلف، العلماء المالكيَّة المتأخِّرون، فجرُّوها إلى مذاهبهم الباطلة، إلى مذهب الأشعريَّة المتكلِّمين، فأخرجوها وأفسدوها عن بابها الَّذي قصد بها مصنِّفها رحمه الله، فإذا أَخَذْتَ هذه «المقدِّمة» لابن أبي زيد القيرواني، وما أدراك ما ابن أبي زيد القيرواني؟! فهو مالك الصَّغير، فإنَّه يجب عليه إذا أخذها أن يأخذها على أيدي أهل السُّنَّة، ولا يأخذ شروح هؤلاء المتأخِّرين الخَلَفيِّين.

وكذلك من الكتب النَّافعة كتاب «الجامع» لابن أبي زيد القيرواني، وله عدَّة طبعات، وهو موجود في الأسواق.

ومن أعظم أيضًا ما يحفظ «سلَّم الوصول» لشيخ شيوخنا الشَّيخ حافظ حكمي رحمه الله، فإنَّ هذا السُّلَّم سلَّم.

ومن أحسن ما يحفظ أيضًا في هذا «الجوهرة الفريدة» فيما يتعلَّق بتحقيق العقيدة أيضًا للشَّيخ رحمه الله، فهي جوهرة فعلاً، على عكس ما يسمَّى بـ«الجوهرة»، جوهرة اللَّقَّاني؛ فإنَّها في توحيد أهل الكلام وعقيدة أهل الكلام، وهي نخالة الأفكار وزبالة الأذهان، وشتَّان بين هذا وهذا، هذه الجوهرة جوهرة على اسمها، ويكفيك في وصفها ما قال صاحبها وناظمها:

وبعد ذي في أصول الدِّين جوهرة
فريدة بسنى التَّوحيد تتقد
بشرح كلِّ عرى الإسلام كافلة
ونقض كلِّ الَّذي أعداؤه عقدوا

فهذه «الجوهرة» إذا اعتنى بها الإنسان عناية فائقة؛ فإنَّه يستفيد لاسيما في باب الصِّفات، وإن كانت قد ضمَّت الصِّفات وغير الصِّفات فيما يتعلَّق بتوحيد العبادة وما يتعلَّق بأمور الدِّين والإيمان وما يتعلَّق بالصَّحابة وما يتعلَّق بالإمامة والسَّمع والطَّاعة، كما فيها خاتمة مهمَّة فيما يتعلَّق بأصول الفقه، فهو كتاب عظيم أو منظومة عظيمة ينبغي الاعتناء بها.

فأنا أوصي أيضًا إخوتي وأبنائي السَّامعين - والقارئين إذا رأوا هذا الكلام مفرَّغًا - أن يعتنوا بمثل هذه المنظومة؛ لأنَّها نافعة جدًّا جدًّا في بابها، وممَّا يدلُّ على أهميَّتها ويربِّي طالب العلم على أصل أصيل فيها مقدِّمته فيها في براءة المتَّبعين من افتراءات المُبدِّعين واقترافات المبتدعين، فهذا المدخل الَّذي جعله فيها في البراءة من أهل الأهواء والبدع تدلُّ على موقف أهل السنة في هذا الباب دلالة واضحة، وتدلُّ أيضًا على صلابة وصرامة وقوَّة مؤلِّفها رحمه الله في هذا الباب، فينبغي لطالب العلم أن يعتني بهذه المنظومة؛ لأنَّها منظومة كما قلنا نافعة جدًّا جدًّا.

فإذا جاء إلى اللُّغة العربيَّة حفظ «الآجروميَّة» منثورة أو منظومة، كما هي في الكتب الَّتي بين أيدي النَّاس اليوم، فنحن حفظنا في ذلك الحين المنثور واليوم خرجت منظومات، فمنها نظمٌ للعَمريطي، ومنها نظمٌ لابن عبد ربِّه، ولعلَّه أقرب إليكم في قطركم مثلاً في بلاد الجزائر في الغرب، يشتهر بينهم، وذلكم لقربكم من بلاد شنقيط وابن عبد ربِّه من تلكم البلاد، فلو حفظ هذا لكان طيِّبًا.

ثمَّ يترقَّى بعد ذلك فيقرأ «ملحة الإعراب» للحريري، وهي من أسلس المنظومات، وإذا قرأ عليها شرحها للنَّاظم فهو أحسن؛ لأنَّ صاحب الدَّار أدرى بما فيه، وشرحه سهل وسلس، وبعيد عن التَّعقيد، يناسب مستوى هذه المنظومة الَّتي هي «الملحة»، ثمَّ بعد ذلك يقرأ «الخلاصة» الَّتي هي ألفية ابن

مالك، فهذه خلاصة خلاصة النَّحو، وقد وُفِّق فيها ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ توفيقًا عظيمًا، فإذا قرأها بعد ذلك لا يضيره أن يقرأ في أيِّ كتاب من كتب النَّحو، هذا ما يتعلَّق بالنَّحو.

فإذا جئت إلى اللُّغة؛ فمن أحسن ما يقرأه في اللُّغة: «المعلَّقات»؛ لأنَّها يدور الاستشهاد عليها، المعلَّقات السَّبع وتتمَّات العشر، ومن أحسن ما يُقرأ عليها من الشُّروح «شرح القاضي الزّوزني»، فهو مختصر لطيف، وإن شاء فـ«شرح ابن الأنباري» أقعد وأكثر، وبه اعتناء بالرِّوايات في الألفاظ، وفي تقديم بعض الأبيات وتأخير بعض الأبيات، فشرح ابن الأنباري على القصائد السَّبع من أجمل الشُّروح وأمتعها، فهذا يقوِّم لسانه، وأيضًا إذا قرأ هذه الكتب وحفظها فإنَّه ينتفع نفعًا عظيمًا في تقويم لسانه وحفظ مادَّة طيِّبة للاستشهاد بها في درسه وشرحه إذا تقدَّم به السِّنُّ إن شاء الله تعالى.

ثمَّ في السِّيرة النَّبويَّة من أبدع وأحسن ما يقرأ «تهذيب سيرة ابن إسحاق» المعروف بين النَّاس بـ«سيرة ابن هشام»، وأوصي الطَّالب بأن يحفظ ما يمرُّ به من الأشعار فيه؛ فإنَّ هذه الأشعار الموجودة في السِّيرة رديف لما قرأه من معلَّقات، يُستشهد به كثيرًا في كتب اللُّغة في النَّحو والصَّرف، فإنَّه يُكَوِّن مادَّة علميَّة جيِّدة، فعليه أن يعتني بحفظ ما فيها من أشعار العرب، فإنَّها من أوثق المصادر وأجملها في توثيق لغة العرب؛ لأنَّه يحتاج إلى ذلك في التَّفسير لكلام الله ـ تبارك وتعالى ـ ولسنَّة رسول الله ﷺ.

أذكر ذات مرَّة مثال هذا الشَّاهد أنَّنا خرجنا للحجِّ وكنَّا مجموعة ومعنا بعض الأشياخ فمررنا بفندق بمكَّة اسمه (رتاج)، أنا نسيت بقيَّة الاسم، أظنُّه أنَّ اسمه (رتاج مكَّة)، فقال أحد إخواننا وهو أكبر منَّا سنًّا بكثير، قال: هذه الكلمة من أين جاؤوا بها؟ هل هي عربية؟ فقلت: نعم؛ هي عربيَّة فصيحة، فقال: العرب تعرفها؟! فقلت: نعم، فإن الرِّتاج هو أُسكفّة البيت في الأسفل الَّتي يدفن فيها الشَّيء الثَّمين من كنز وذهب ونحوه، ومنه: قيل: عتبة الباب وأُسكُفَّة باب الكعبة رِتاج، قال: هذا تعرفه العرب؟ قلت: أَما سمعت قول أبي طالب:

وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي
وأمسكت من أثوابه بالوصائل

قياما معا مستقبلين رتاجه
لدى حيث يقضي حَلْفَهُ كلُّ نافل

فقال: والله نحن نقول للصَّخر الكبار رتاج، قلت له: هذا غلط، وإنَّما الرِّتاج هو هذا.

على كلِّ حال هاته هي اللُّغة، واللُّغة فصيحة، ولكن أحيانًا يغيب على الإنسان الشَّيء بسبب عدم الحفظ، فالسِّيرة النَّبويَّة من أبدع ما يُحفظ فيها مع الوقائع والأحداث أشعار العرب الفصيحة؛ لأنَّها رديفة لكتب اللُّغة وكتب الأشعار العربيَّة الفصيحة الَّتي هي محلُّ الاستشهاد، فأوصي أبنائي وإخوتي طلبة العلم ألاَّ يغادروا هذه السِّيرة إلاَّ وقد اعتنوا بها وبحفظ الأشعار الَّتي فيها؛ لأنَّ العلم إنَّما هو الحفظ وسنعرِّج إن شاء الله تعالى عليه، وذلك لأنَّ الطَّالب سيحتاج إلى هذا المحفوظ وإذا لم يكن ثَمَّ محفوظ فلا علم، فعليه أن يعتني بهذا، وعلى المدرِّس الَّذي يدرِّس الطُّلاَّب أن لا يتساهل معهم في الحفظ، لاسيما إذا رأى منهم استعدادًا، فيشدِّد عليهم فإنَّهم سيحمدون هذا له فيما بعد إذا بلغوا إلى السِّنِّ الَّتي يعرفون فيها قيمة هذا العلم، فأوصيهم بهذا، فـ«السِّيرة النَّبويَّة» لابن هشام من أبدع الكتب وأوصي فيها بهذا الَّذي ذكرت.

وهكذا في أصول الفقه لا بدَّ أن يحفظ متنًا من المتون في أصول الفقه، ومن أحسن ما يُحفظ عندنا نحن هنا المعوَّل عليه ثلاثة كتب، عند الحنابلة كتاب وعند المالكيَّة كتاب وعند الشَّافعيَّة كتاب وهي متقاربة، فالثَّلاثة أصولهم متقاربة، فعند المالكيَّة «مختصر ابن الحاجب»، وعند الشَّافعية «الورقات»، وعند الحنابلة من أحسن ما يُقرأ «مختصر التَّحرير»، فهذه الكتب الثَّلاثة كلُّها جميلة، كلُّها نافعة، فإذا حفظ الإنسان واحدا منها فطيِّب، ومن حفظ «منظومة العمريطي للورقات» فنحن نبدأ بها مع أنَّ المذهب السَّائد عندنا المذهب الحنبلي ومع ذلك نحفظ «الورقات» أو «نظم الورقات» للعمريطي؛ لأنَّ أصول الثَّلاثة متقاربة، شيخ الجميع مالك، وتلميذه الشَّافعي وتلميذ تلميذه أحمد، فأصولهم متقاربة لا فرق بينها إلاَّ أشياء يسيرة جدًّا في الفروعيَّات، وكذلك «مختصر ابن الحاجب»، وكذلك «مختصر التَّحرير»، وأوصيه بكتاب رابع معها بعد هذه المختصرات وهو «جمع الجوامع»، فهو من أبدع الكتب، وقد حاول فيه صاحبه أن يجمع بين الطَّريقتين، بين طريقة الجمهور والحنفيَّة، وهو كتاب نافع، وقد عكف النَّاس عليه، ومن أحسن الشُّروح: شرحه هو عليه، و«شرح جلال الدِّين المحلِّي»، طيِّبٌ جدًّا، فهذا

مسائل منهجية

فيما يتعلَّق بأصول الفقه، وإن حفظ «منظومة العمريطي» فطيِّب، وإن حفظ غيرها فالأمر فيه سَعة ولله الحمد.

كذلك من المتون النَّافعة في أصول الفقه: «وسيلة الحصول إلى مهمَّات الأصول» للشَّيخ حافظ الحكمي رحمه الله، فإنَّها من أحسن ما حُرِّر في هذا الباب، وهي منظومة متينة وجميلة وواضحة وسهلة الألفاظ والعبارات، ومشى فيها رحمه الله على الرَّاجح في الغالب، وله اختيارات فيها ظاهرة، فإن حصل لطالب العلم أن يحفظها فالحمد لله، نحن حفظناها في الصِّغر، وهي منظومة نافعة جدًّا، هذا فيما يتعلَّق بأصول الفقه.

أمَّا الفقه؛ فالأمر عائد إلى المعلِّم الَّذي يقوم بتعليم الطُّلاَّب، وأنا أرى أنَّ القراءة في كتب الفقه وحفظ المتون في هذا الباب مهمٌّ جدًّا؛ لأنَّه يُكسب الطَّالب دُربة في ذكر الأحكام الفقهيَّة ويعوِّده على عبارات الفقهاء وعلى معرفة تعليلات الفقهاء للأحكام بغض النَّظر عن موافقتنا، هل تعليله راجح أو مرجوح؛ لكنَّه يكسب منه دُربة ومراسًا في هذا الباب، فأنا أوصي طلبة العلم أن يحفظوه، فمثلاً عندنا هنا بالمملكة العربيَّة السُّعوديَّة يهتمُّون إمَّا بـ«الزَّاد» وإمَّا بـ«دليل الطَّالب»، إمَّا بـ«زاد المستقنع» للحجاوي، وإمَّا بـ«دليل الطَّالب» لمرعي الكرمي - رحمهم الله جميعًا -، والمعلوم عند الشَّافعيَّة: «المنهاج»، والمعلوم عند المالكيَّة: «مختصر خليل»: ولا شكَّ أنَّ الطالب لا بدَّ أن يُعوِّد من أوَّل أمره على الانقياد للدَّليل، فما صحَّ دليله وجب عليه أخذه؛ لأنَّ هؤلاء الأئمَّة كلّهم قد أوْصونا بأن نأخذ ما صحَّ ونترك ما لم يصحَّ دليله عن رسول الله ﷺ.

ولكن نحن نَحُثُّ على الاعتناء بالمتون الفقهيَّة؛ لأنَّا نرى في هذا الوقت الضَّعف في الجانب الفقهي والمرء يُسأل فيذهب يمنة ويسرة إنشاءً وتعبيرًا، خاليا من عبارات الفقهاء المضبوطة وعبارات العلماء المتقنة، فنوصي الطَّالب أن يعتني بهذا الباب حتَّى يكون - بإذن الله تبارك وتعالى - على طريقة أهل العلم، وهو إذا أخلص النِّيَّة لله وبذل السَّبب على هذا النَّحو فهو - إن شاء الله تعالى - لا يمكن أن يقبل بالتَّقليد؛ لأنَّ التَّقليد مذموم، والتَّقليد إنَّما هو قبول قول العالم من غير معرفة دليله، وصاحبه قد انعقد الإجماع على أنَّه ليس بطالب علم فضلاً عن أن يكون عالمًا، فالتَّقليد إنَّما يحتاج إليه الإنسان في أوَّل أمره، حينما يكون في صغر سنِّه ولا يدري عن هذه الأمور شيئًا ولا عن التَّرجيحات.

بقي علينا نوع واحد منها وهو ما يتعلَّق بأصول الحديث، وذلك لأنَّ طالب العلم يحتاج إلى أصول الحديث وأصول التَّفسير وأصول الفقه، فأصول التَّفسير يُحسِن بها الاستنباط من كتاب الله، ويعرف بها ناسخه ومنسوخه ومقَدَّمه ومؤخَّره وعامَّه وخاصه، وأصول الفقه يُحسن بها الاستنباط وبناء الأحكام الصَّحيحة في هذا، وفي الحديث كذلك، وأصول الحديث يثبت بها الرِّواية الَّتي تُبنى عليها الأحكام؛ لأنَّ المستدلِّين على أنواع، منهم من عنده المعرفة التَّامَّة بحديث الرَّسول ﷺ، فهذا الَّذي لا يُغلَب بإذن الله تعالى فهو صاحب الحجَّة القويَّة، كما قال الشَّافعي: «من عرف الحديث قويت حجَّته»، ولا سبيل إلى معرفة صحيحه من ضعيفه إلاَّ بمعرفة قواعده، وهذا هو المسمَّى بعلوم الحديث أو بمصطلح الحديث.

ومن أحسن ما ينبغي الاعتناء به في هذا هو متن «نخبة الفكر» للحافظ ابن حجر، فهي صغيرة مختصرة محرَّرة معتصرة من المختصرات الكبار، صاحبها إمام في الفنِّ رحمه الله، ومن أحسن ما يعتنى به عليها: «نزهة النَّظر»، فهي نزهة في «نخبة الفكر»، فينبغي أن يعتني بهذه ابتداءً، فإذا حفظ «النُّخبة» المتن، ثمَّ قرأ «النُّزهة» وتفهَّمها وضبطها فقد أتقن أصول الحديث إن شاء الله، ثمَّ بعد ذلك يقرأ «التَّقريب» للنَّووي الَّذي هو مختصر من «الإرشاد»، ويقرأ «اختصار علوم الحديث» للحافظ ابن كثير رحمه الله، لا سيما مع تعليقات الشَّيخ أحمد شاكر عليه، والشيخ ناصر الدِّين الألباني - رحم الله الجميع - عليه في «الباعث الحثيث»، فهذه الكتب نافعة جدًّا له، يعرف بها الدِّراية التَّامَّة لأصول الرِّواية الَّتي يثبت بها أدلَّته، ومن المستدلِّين من يستدلُّ وعنده معرفة قليلة فهذا تجده يُخلِّط تارة وتارة، ومنهم من يستدلُّ وهو لا يعرف صحيح الحديث من سقيمه، فهذا الَّذي لا تكاد تسلم أحكامه من الإيرادات عليها والاعتراضات والنَّقض.

فالشَّاهد أنَّ معرفة أصول الحديث يُثبت بها العرش، ومعرفة أصول الفقه يحسن بها النَّقْش، فلا بدَّ لطالب العلم من الاعتناء بالجميع.

هذا ما يتعلَّق بالعلوم اختصارًا وكتبها وفنونها.

ولكن مع هذا، هذا الَّذي تقدَّم لا بدَّ معه من حفظ، ولعلَّها تكرَّرت هذه الكلمة، فنحن نوصي بالحفظ، فإذا لم

يكن طالب العلم حافظًا واعيًا فالجمع فيه أو منه للكتب لا ينفعه؛ لأنَّ المحفوظ هو بمثابة الَّذي هو في الجيب معك تنفق منه دائمًا وأبدًا، وأمَّا الَّذي هو في بطون الكتب فهو بمثابة الأموال في الخزائن إنَّما يُرجع إليها عند الحاجة الكبيرة، فالكتب يرجع إليها عند التَّأليف وعند تحرير المسائل ومناقشة الأقوال ونحو ذلك، أمَّا ما يتعلَّق بالتَّعليم والفُتيا والتَّدريس والتَّفقيه ونحو ذلك فهذا الإنسان إنَّما ينفق من محفوظه، فلا بدَّ حينئذ من الاعتناء بالكتب الَّتي يعتني بها، ونوصيه بالمشهور.

ولابدَّ أيضًا من أخذها من العالم المشهور بالعلم، إمَّا بالاستفاضة والشُّهرة وإمَّا بشهادة أهل العلم له، ولابدَّ حينئذ من حفظ، إذًا لا بدَّ في المتن من أن يكون مشهورًا، ولا بدَّ أن يأخذه على عالم معروف أو شيخ معروف مشهور بالطَّلب، أو مشهود له بأنَّه أهل للتَّعليم، ولا بدَّ معه من حفظ، فالذَّهاب إلى المغمورات وإلى الغرائب يضيِّع العمر فيه ولا يحصَّل معه علم، وأخذ العلم على غير أهله لا ينتفع منه صاحبه، كما أن يأخذ من الكتب سواء، هو ومن يأخذ من الكتب والصُّحف سواء، إذا كان غير متأهِّل؛ لأنَّ المتأهِّل يكون مربِّيًا ناصحًا له، يدلُّه على العلوم وتحصيل العلوم في أقصر وقت وبأيسر طريق، وإذا لم يكن ثَمَّ محفوظ فلا شيء، ولا فائدة، ولهذا يقول في ألفيَّة السّند:

وما حوى الغاية في ألف سنه
شخص فخذ من كلِّ فن أحسنه
بحفظ متن جامع للرَّاجح
تأخذه على مفيد ناصح

فشمل هذا القول على الثَّلاثة الأركان: الأوَّل الحفظ، والثَّاني: الاعتناء بحفظ متن، وهذا المتن لا بدَّ له من أوصاف: لا بدَّ أن يكون المعمول به والمشهور والجامع للرَّاجح في الفنِّ، تأخذه من مفيد وعلى ناصح لك يفيدك، فلا بدَّ من هذه الأمور لطالب العلم:

علمي معي أينما يمَّمت أحمله
بطني وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم معي
وإن كنت في السُّوق كان العلم في السُّوق

يقول الشاعر:

تكتب العلم ثمَّ تلقي في سفط
ثمَّ لا تحفظ لا تفلح قط
إنَّما العلم كما تحفظه
مع فهم وتوقّ من غلط

وهذا أيضًا يقول الشَّاعر:

وإنَّما التَّعليم بالتَّعلُّم
والحفظ والتَّدقيق والتَّفهم

فلا بدَّ من تعلُّم على عالم، فمن لم يتعلَّم على العلماء يَشتَطّ وينزلق وهو لا يشعر؛ لأنَّ العلماء يؤدِّبون ويربُّون، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ٧٩﴾ [آل عمران]، هؤلاء العلماء الرَّبَّانيّون هم الَّذين يربُّون التَّربية الصَّحيحة، فلا بدَّ من التَّعلُّم على عالم، على متأهِّل، ثمَّ بعد ذلك لا بدَّ من حفظ لمتن على هذا العالم المتأهِّل، والمدرِّس المتأهِّل، ثمَّ لابدَّ بعد الحفظ من تدقيق، والتَّدقيق هذا هو تحقيق المحفوظ بتصحيحه، وتصحيح العلوم لا يكون إلاَّ بأخذها على العلماء، الحفظ والتَّدقيق والتَّفهُّم، التَّفهُّم في هذه المتون إنَّما يكون كذلك بعدما يحفظ ويدقِّق ويصحِّح، يتفهَّم في هذا المحفوظ، ونسأل الله - سبحانه وتعالى - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفِّقنا وسائر إخواننا إلى هذا الَّذي ذكرنا إنَّه جواد كريم.

وأيضًا فيما يخص المتون فيما هو متعلق بجانب الآداب والأخلاق، أوصي طالب العلم بحفظ «القصيدة الميميَّة في الوصايا والآداب العلميَّة» للشَّيخ أيضا رَحِمَهُ الله الشَّيخ حافظ بن أحمد الحكمي، فإنَّ طالب العلم في حاجة إلى الأدب، يقول ابن المبارك رَحِمَهُ الله: «ونحن إلى كثير من الأدب أحوج منَّا إلى كثير من العلم»، ويقول الشَّافعي رَحِمَهُ الله: «تعلَّمت الحديث عشر سنين، وطلبت الأدب عشرين سنة»، وقد قيل له رَحِمَهُ الله سائلين: كيف اشتياقك للأدب؟ فقال: «اشتياقُ الأم لولدها الوحيد افتقدته»، فرحمهم الله تعالى؛ لأنَّ هذا العلم لا بدَّ له من آداب يتحلَّى بها طالب العلم، وإذا لم يتحلَّ بالآداب فإنَّ النَّاس ينفرون منه ولا يستقيم سلوكه، فلا بدَّ من معرفة هذا الباب والاعتناء به اعتناءً بالغًا؛ لأنَّه يكسوه الجمال، ويكسوه بإذن الله تعالى المهابة ويكسوه أيضًا الوقار، وهذا مطلوب في طالب العلم.

ومن أحسن الكتب أيضًا الَّتي يُحَثُّ عليها في هذا الباب كتاب «الأدب المفرد» للإمام البخاري رَحِمَهُ الله، وكتاب أيضًا «الأدب المفرد» لابن أبي شيبة، وكتاب الأدب في «صحيح البخاري»، وكتاب الأدب في «سنن أبي داود» رَحِمَهُ الله، وكتاب «أخلاق النَّبيِّ ﷺ وآدابه» لأبي الشَّيخ الأصبهاني، وكتاب «مكارم الأخلاق» للخرائطي، وكتاب «الأخلاق» للإمام الطَّبراني، فهذه الكتب كلُّها نافعة ينبغي لطالب العلم أن يعتني بها وأن يحرص عليها وأن يقرأ فيها؛ فإنَّه بحاجة شديدة ماسَّة إليها، والله أعلم.

أسباب الانتكاسة

ياسين شوشار
إمام خطيب. الجزائر العاصمة

إنَّ المرء قد يسير في أوَّل عمره على طريق الهداية، قويَّ الإيمان، عظيم التَّديُّن ولكن سرعان ما يضعف إيمانه، ويقلُّ تديُّنه، فتحصل له الانتكاسة، فيسلك طريق الفساد والانحراف.

ولك أن تتأمَّل في حديث النَّبيِّ ﷺ لتدرك نعمة الله عليك أيُّها المستقيم، وحتَّى لا تغترَّ بلطف الله بك، أخرج التِّرمذي من حديث عبد الله بن سَرْجِس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر يقول: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ المُنْقَلَبِ، وَمِنَ الحُورِ بَعْدَ الكورِ وَمِنْ دَعْوَةِ المَظْلُومِ، وَمِنْ سُوءِ المَنْظَرِ فِي الأَهْلِ وَالمَالِ»، قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح»، ويروى: «الحور بعد الكون» أيضًا، ومعنى قوله: «الحور بعد الكون» أو «الكور» - وكلاهما له وجه -، يقال: إنَّما هو الرُّجوع من الإيمان إلى الكفر أو من الطَّاعة إلى المعصية إنَّما يعني الرُّجوع من شيء إلى شيء من الشَّرِّ»[1]، فالانتكاسة هي ما يحصل للعَبد من تغيُّر من الهداية إلى الضَّلال، ومن الرُّشد إلى الغيِّ، ومن السُّنَّة إلى البدعة، ومن الاستقامة وصلاح الحال إلى التَّميُّع وفساد الفعال، بل وحتَّى من الإيمان إلى الكفر، والعياذ بالله.

والإنسان تتنازعه عوامل الخير والشَّرِّ، وهو لا ينتقل من حال إلى حال إلاَّ بوجود دوافع كثيرة ومتنوِّعة، إمَّا داخليَّة وإمَّا خارجيَّة.

ولابدَّ لحصول العلاج من معرفة دوافع الانتكاسة وعواملها وأسبابها، وهي ظاهرة خطيرة تبعث على القلق؛ لأنَّ مآلها تصدُّع بنيان الأمَّة الإسلاميَّة، في وقت هي أحوج ما تكون إلى جميع أفرادها.

◆ ◆ ◆

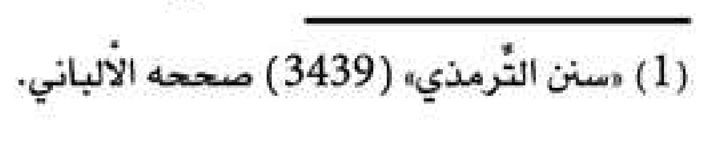
الأسباب الدَّاخليَّة:

◆ أوَّلًا: إهمال العلم النَّافع والعمل الصَّالح:

إنَّ إهمال العلم النافع والعمل الصَّالح - على الرَّغم من الاعتزاز بالدِّين -، أدَّى إلى الوقوع في شراك الشَّهوات، والتَّأثُّر بكلِّ ما يُعطى صبغة شرعيَّة من الشُّبهات ولو ناقض الإسلام وعارض أصول دعوة النَّبيِّ ﷺ.

(1) «سنن التِّرمذي» (3439) صححه الألباني.







يقول الشَّيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ: «يولد المرء من أبوين مسلمَيْن فيعدُّ مسلمًا، فيشبُّ ويكتهل ويشيخ وهو يعدُّ من المسلمين، تجري على لسانه وقلبه كلمات الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلاميَّة، فراق روحه أهون عليه من فراق الإسلام، لو نسبته لغير الإسلام لثار عليك أو بطش بك، ولكنَّه لم يتعلَّم يومًا شيئًا من الإسلام، ولا عرف شيئًا من أصوله في العقائد والأخلاق والآداب والأعمال، ولم يتلقَّ شيئًا من معاني القرآن العظيم ولا أحاديث النَّبيّ الكريم ﷺ، فهذا مسلم إسلامًا وراثيًّا؛ لأنَّه أخذ الإسلام كما وجده من أهله، ولا بدَّ أن يكون ـ بحكم الوراثة ـ قد أخذه بكلِّ ما فيه ممَّا أدخل عليه وليس منه من عقائد باطلة وأعمال ضارَّة وعادات قبيحة، فذلك كلّه عنده هو الإسلام، ومن لم يوافقه على ذلك كلّه فليس عنده من المسلمين.

هذا الإسلام الوراثي هو الإسلام التَّقليدي الَّذي يؤخذ بدون نظر ولا تفكير، وإنَّما يتَّبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء، ومحبَّة أهله للإسلام إنَّما هي محبَّة عاطفيَّة بحكم الشُّعور والوجدان.

هذا الإسلام الوراثي هو إسلام معظم عوام الأمم الإسلاميَّة، ولهذا تراها مع ما أدخلت على الإسلام من بدع اعتقاديَّة وعمليَّة، ومع ما أهملت من أخلاق الإسلام وآدابه وأحكامه، متمسِّكة به غاية التَّمسُّك، لا ترضى به بديلاً ولو لحقها لأجل تمسُّكها به ما لحقها من خصومه من بلاء وهوان...

إلى أن قال: لكن هذا الإسلام الوراثي لا يمكن أن ينهض بالأمم؛ لأنَّ الأمم لا تنهض إلاَّ بعد تنبُّه أفكارها وتنقح أنظارها، والإسلام الوراثي مبنيٌّ على الجمود والتَّقليد، فلا فكر فيه ولا نظر.

أمَّا الإسلام الذَّاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه وأعماله، ويتفقَّه ـ حسب طاقته ـ في الآيات القرآنيَّة والأحاديث النَّبويَّة، ويبني ذلك كلّه على الفكر والنَّظر، فيفرِّق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبَّته للإسلام محبَّة عقليَّة قلبيَّة بحكم العقل والبرهان كما هي بمقتضى الشُّعور والوجدان.

هذا الإسلام الذَّاتي هو الَّذي أمرنا الله به في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ [سَبَإ: 46]، فبالتَّفكُّر في آيات الله السَّمعيَّة وآياته الكونيَّة وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر، تنهض الأمم»[2].



(2) «آثار ابن باديس» (123/4) ـ طبعة وزارة الشُّؤون الدِّينيَّة.

◆ ثانيا: فساد القلوب وأمراضها:

إنَّ ترك هذه القلوب عرضة للبطالة لا يعتني بها صاحبها، لا تحلية بالفضائل ولا تخلية من الرَّذائل، يسبِّب توسُّع رقعة الشَّرِّ على حساب رقعة الخير، فتكثر الأمراض وتثبت، وتستقرُّ، فيستعصي علاجها، أو اجتنابها واقتلاعها.

وإنَّ أخطر ما يجتمع على هذه القلوب ممَّا يؤدِّي إلى انتكاسة صاحبها، أدواء كثيرة أعظمها ثلاثة:

1. الرِّياء: إنَّ العبد في بداية الطَّريق يستعذب الإيمان، ويحسُّ بحلاوة الطَّاعة ويجد لذَّة العبادة، وهو على هذا الحال حتَّى يتغير الأساس عنده، من إخلاص العمل لله وإتقانه له، إلى حبِّ الثَّناء ومحمدة النَّاس، فيدبُّ الضّعف إليه شيئًا فشيئًا، والنَّبيُّ ﷺ بيَّن خطورة الرِّياء، وأنَّه أخوف ما خافه وخوَّف منه أمَّته، فيما أخرجه أحمد في «مسنده» (23630) من حديث محمود ابن لبيد أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُم الشِّرْك الأَصْغَر، قَالُوا: وما الشِّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرِّياء، يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم يوم القيامة إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذهَبُوا إلى الَّذين كنتم تُرَاءونَ في الدُّنيا فانظُروا هَل تَجدون عندَهُم جزاءً»[3].

2 ـ الكبر: والَّذي أصله الامتناع عن الحقِّ وردُّه، واحتقار أهله وازدراؤهم، يقول النَّبيُّ ﷺ: «الكِبْرُ بَطرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاس»[4]، والمتكبِّر يرى نفسَه أفضل من غيره ولا يقبل نصحًا ولا إرشادًا ممَّن جاءه، ولذا حذَّر الإسلام

(3) انظر «صحيح التَّرغيب» (32).

(4) جزء من حديث رواه مسلم (91) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

منه وغلّظ من عقوبة صاحبه، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»[5].

وقد يكون المتكبِّر على علم بهذا الحقِّ إلاَّ أنَّ نفسه لا تطاوعه للانقياد له، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14].

فهو بمثابة الحجاب لصاحبه دون الجنَّة؛ لأنَّه يحولُ بين صاحبه وبين قبول الحقِّ، فلا يقدر على التَّواضع ولا على ترك الاستعلاء عليهم، وإذا تمكَّن من القلب أفسده، وأوقعه في الزَّيغ والضَّلال والانحراف، وكان ذلك سببًا لهلاكه وانتكاسته، والله المستعان.

3. العُجب والغُرور:

قال ابنُ باديس رحمه الله: «والعُجب هو أساس الرَّذائل، فأوَّل التَّرك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك، ومن لم يكن معجبًا بنفسه كان بمدرجة التَّخلُّق بمحاسن الأخلاق والتَّنزُّه عن نقائصها؛ لأنَّ الإنسان مجبول على محبَّة الكمال وكراهة النَّقص، فإذا سلم من العجب فإنَّ تلك الجبلَّة تدعوه إلى ذلك التَّخلُّق والتَّنزُّه، فإذا نبَّه على نقصه لم تأخذه العزَّة، وإذا رغب في الكمال كانت له وإليه هزَّة، فلا يزال بين التَّذكيرات الإلهيَّة والجبلَّة الإنسانيَّة الخلقيَّة يتهذَّب ويتشذَّب حتَّى يبلغ ما قدر له من كمال»[6].

والمرء حينما يعجب بنفسه وإيمانه وعمله، يتصوَّر استحقاق منزلة ليست إليه، فيتصوَّر نفسه صاحب الفضل على غيره.

وهو حينمَا يعجب بنفسه يشعر بالكمال، فلا يرى أنَّ له حاجة في الازدياد من العلم النَّافع ولا العمل الصَّالح، ولقد بيَّن الله تعالى في القرآن العظيم هذه الحقيقة، عند ذكر إبليس فقال جلَّ شأنه: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [الإسراء]، فاجتمع فيه الحسد والعجب والكبر والاحتقار، فكانت من أسباب طرده، وانتكاسته، فأعرض عن أمر الله تعالى نتيجة لذلك.

قال ابن باديس رحمه الله: «والحسد شرٌّ تلازمه شرور: العُجب والاحتقار والكِبْر، وقد جمع إبليسُ هذه الشُّرور كلَّها، حسد آدم عُجْبًا بنفسه: فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 12]، ورآه لا يستحقُّ السُّجود احتقارًا له فقال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: 62]، ثمَّ تكبَّر ولم يسجد ورضي باللَّعنة والخزي، ولا أشنَع من صفة يكون إبليس فيها إمامًا»[7].

فالعجب من أخطر الأمراض الَّتي تؤدِّي إلى الانتكاسة؛ لأنَّه يقعد صاحبه عن العلم النافع والعمل الصَّالح.



◆ ثالثا: البعد عن المنهج النَّبوي السَّوي بالغلوِّ أو الجَفاء:

إنَّ النَّفس مجبولة على الاعتدال، وتأبى ما يُثقل كاهلها، ولكنَّها إذا جنحت بصاحبها إلى الغلوِّ فإنَّها لن تتمكَّن من مواصلة السَّير إلاَّ بُرهة من الزَّمن، وأصابها الملل ثمَّ السَّآمة ثمَّ الانقطاع، كلُّ ذلك بعد أن كانت نفسه تطلب المعالي.

يقول النَّبيُّ ﷺ مبيِّنًا ذلك: «إيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّين فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالغُلُوِّ فِي الدِّينِ»[8].

وفي «صحيح البخاري» (39) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلاَّ غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»[9] عن هذا الحديث: «والمعنى: لا يتعمَّق أحد في الأعمال الدِّينيَّة ويترك الرِّفق إلاَّ عجز وانقطع فيغلب، قال ابن المنير: في هذا الحديث علَمٌ من أعلام النُّبوَّة، فقد رأينا ورأى النَّاس قبلنا أنَّ كلَّ متنطِّع في الدِّين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنَّه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدِّي إلى الملال أو المبالغة في التَّطوُّع المفضي إلى ترك الأفضل أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلِّي اللَّيل كلَّه ويغالب النَّوم إلى أن غلبته عيناه في آخر اللَّيل فنام عن صلاة الصُّبح في الجماعة أو إلى أن خرج الوقتُ المختار أو إلى أن طلعَت الشَّمسُ فخرج وقتُ الفريضة...».

◇ ويقابل التَّشدُّد ما يحصل من بعضهم من التَّساهل: إمَّا في أوامر الله والالتزام بأحكام الشَّرع، بتتبُّع الرُّخص حتَّى انتقلوا من الوسطيَّة الَّتي يجب أن تسلك إلى الأخذ بالأسهل، وظلُّوا على هذا الحال من ترويض النُّفوس على

(5) حديث مسلم الآنف الذِّكر.

(6) «تفسير ابن باديس» (1/277. 278).

(7) «تفسير ابن باديس» (2/364).

(8) رواه ابن حبَّان في «صحيحه» (1851) وغيره، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وفي «صحيح الجامع» (2680).

(9) (1/94).

الرُّخص حتَّى لم يستطيعوا حملها على العزائم في أيِّ حين، فضعف إيمانُهم وقلَّ نوره؛ وإمَّا بالمعاصي والذُّنوب، فلا يعظِّم كبيرَها ولا يترك صغيرَها، ولا هو يستحيي من ذي الجلال والإكرام.

ولقد صدق - والله - الصَّحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه حيث قال لمن حضره من التَّابعين: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أعمالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا على عهد النَّبيِّ ﷺ من المُوبِقَات»[10]، فما زال العبد يحقر الذَّنبَ العظيمَ ويتهاون بالذَّنب الصَّغير حتَّى يهلك، والعياذ بالله.

ولقد أوضح هذا النَّبيُّ ﷺ بقوله: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فإنَّما مَثَلُ محقَّرات الذُّنوب كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[11].

ورحم الله ابن القيِّم الَّذي بيَّن في كتابه القيِّم «الدَّاء والدَّواء» علاقة التَّساهل في الذُّنوب بالانتكاسة، فقال: «ومن عقوبتها أنَّها تُضعف سير القلب إلى الله والدَّار الآخرة أو تعُوقه أو تُوقفُه وتَقطعُه عن السَّير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوةً، هذا إن لم تَردَّه عن وجهته إلى ورائه، فالذَّنب يحجبُ الواصلَ، ويقطعُ السَّائرَ، وينكِّسُ الطَّالبَ.

والقلبُ إنَّما يسيرُ إلى الله بقوَّته، فإذا مَرض بالذُّنوب ضعفت تلك القوَّة الَّتي تسيِّره، فإن زالت بالكليَّة انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركُه، والله المستعان»[12].

(10) رواه البخاري في «صحيحه» (6492).
(11) رواه أحمد (22809) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (2686).
(12) «الدَّاء والدَّواء» (ص: 178 - عالم الفوائد).



◆ رابعًا: الفتور:

إنَّ الفتور مرحلة تتوسَّط الالتزام والانحراف، وهو ظاهرة خطيرة، حيث يعدُّ من بين أهمِّ عوامل الانتكاسة إن لم يتدارك المسلم نفسَه ويحملها على الجدِّ والنَّشاط والاستقامة والعبادة.

والعبد لا يخلو من عارض الكسل مهما كان حاله، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا، عالمًا فاضلاً أو من عامَّة النَّاس، ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يتعوَّذ بالله منه ويأمر أصحابه بذلك ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحزنِ وَالعَجْزِ وَالكَسَلِ»[13].

والعبد قد يفتر عن فعل النَّوافل كما قد يفتر عن فعل الفرائض في أوقاتها، أو هيئاتها الشَّرعيَّة، وقد يتهاون فيفعل بعض المحرَّمات، وهو على هذا الحال حتَّى يعتاد هذه الطَّريقة من فعل المحرَّمات، وإهمال الفرائض والنَّوافل من القُربات حتَّى يهلك، والعياذ بالله.

ورحمَ الله سلف هذه الأمَّة، يقول قائلهم: «مازلت أسوق نفسي إلى الله وهي تبكي حتَّى سقتُها إليه وهي تضحَك».

ويقول ابن رجب رحمه الله: «واعلم أنَّ نفسك بمنزلة دابَّتك، إن عرفت منك الجدَّ جدَّت، وإن عرَفَت منكَ الكسَلَ طمعت فيكَ، وطلبَت منكَ حظوظَها وشهواتِها»[14].

فالفتور داء خطير يؤدِّي إلى ضعف الإيمان، وقد يتطوَّر ليصل بصاحبه إلى مرحلة الجمود، والله المستعان.

(13) متَّفق عليه.
(14) «مجموع رسائل ابن رجب» (16/3).

◆ خامسا: العزلة:

ومن أعظم أسباب الانتكاسة العزلة والَّتي ما حذَّر منها الإسلام إلاَّ لأنَّها شرٌّ وبيل، وخطر عظيم على الفَرد والمجتمع.

فعن عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «عَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ وَهُوَ مَعَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بَحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الجَمَاعَةَ»[15].

والعبد باعتزاله المجتمع تفوته منافع كثيرة، ومصالح عديدة، فهو بحاجة إلى العلم والتَّعلُّم، والنَّفع والانتفاع، والتَّأديب والتَّأدُّب، والاستئناس والإيناس، وهو حين يبتعد عن الجماعة، ويرضى بالعزلة، فإنَّه يحرم نفسه من هذه الخيرات والتَّجارب، ويبقى ضعيف الأفق، قاصر النَّظر، لا يعرف كيف يواجه أبسط المشكلات، وبهذا يصير عرضة للشَّيطان الَّذي يثخن فيه بسهامه المسمومة، ووسوسته المعلومة، والَّتي من وقع في شراكها هلك.

وهو كذلك تهفو نفسه لارتكاب بعض المعاصي أو التَّقصير في بعض الطَّاعات، فيضعف، وتخور قواه، ويدركه الملل والسَّأم، وينقطع عن الطَّريق.



(15) رواه التِّرمذي (2165)، و هو في «صحيح سنن التِّرمذي».

الأسباب الخارجية:

◆ **أولا: الشَّيطان ووساوسه:**

وأمَّا عن أسباب الانتكاسة الخارجيَّة فأوَّلها الشَّيطان الَّذي عاهد ربَّنا الرَّحمن على غواية بني الإنسان، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص].



الشَّيطان الَّذي هو ألدُّ أعداء بني آدم، قال الله تعالى محذِّرًا منه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

فهو يريد للإنسان الخسارة العاجلة والآجلة، فيبغِّض إليه الطَّاعات ويحبِّب إليه السَّيِّئات، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة].

وهو في سبيل ذلك يجلب عليهم بخيله ورجله، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «أرغبُهم في دنياهم... أشبِّهُ عليهم أمرَ دينهم... أشهِّي لهم المعاصي»[16].

فإذا علم ذلك بان واتَّضح أنَّ الشَّيطان من أعظم أسباب الانتكاسة، فتنبَّه.

(16) «جامع البيان» (8/136).

قال البشير الإبراهيمي رحمه الله: «ولمَّا كان الشَّيطان بالمرصاد لهذا الآدمي، وكان هذا الشَّيطان قد أعطى الله العهد وأقسم ليُغْوينَّه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص]، وكانت مداخلُه إلى قلبه كثيرة، كانت أكبر وسيلة له إلى ذلك أن ينسيه ربَّه، وكان التَّذكُّر، وهو تكلُّف الذِّكر ومجاهدة النَّفس عليه، أمضى سلاح، يحارب به المؤمن الشَّيطان.

فالتَّذكُّر نتيجة عراك بين النَّفس المُنيبَة والشَّيطان، ولذلك كان أمرًا شاقًّا لا يقدر عليه إلاَّ الموفَّقون، قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى]، وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر]، وقال هنا: في آية درسنا... ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص]»[17].

وقال ابن باديس: «علينا وقد علمنا أنَّ الشَّيطان متمكِّن من الوسوسة لنا من جميع نواحينا متَّصلاً بنا اتِّصالاً، وقريبًا منَّا قربًا مثل اتِّصال وقرب الدَّم لا يمكننا الانفصال عنه كما لا يمكننا الانفصال عن الدَّم، أن نأخذ جميع الحيطة لردِّ كيده وإبطال تدبيره وإحباط وسوسته وذلك بالمبادرة إلى الاستعاذة بالله منه...»[18].



(17) «الآثار» (2/59).
(18) «آثار ابن باديس» (2/271).

◆ **ثانيا: الفتنة بالدُّنيا والتَّعلُّق بها:**

الدُّنيا خلقت لتكون معبرًا للآخرة، تُشغل بطاعة الله والبعد عن معصيته، فمن ركن إليها ونسي آخرته، فقد ضيَّع نفسه، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾ [التكاثر].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: شغَلَكُم حبُّ الدُّنيا ونعيمُها وزهرتُها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتَّى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟!»[19].

إنَّ الفتنة بالدُّنيا من أعظم الفتن الَّتي تواجه الإنسان، فكم من رجل باع دينه بحفنة من المال، وكم من إنسان ضحَّى بدينه والدَّعوة إلى الله خوفًا على منصبه وخشية على رزقه، وصدق النَّبيُّ ﷺ في قوله: «يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[20].

ترى الواحد منهم إذا دخل في أمور الدُّنيا والتِّجارة انشغل بها انشغالاً كبيرًا، بل ربَّما تنازل عن بعض الأمور الشَّرعيَّة، ووقع في الحرام بسبب حبِّه للمال ورواج تجارته، إمَّا بقبول رشوة أو بدخوله في معاملات ربويَّة، وهكذا حتَّى يضعف إيمانه، ويكون ذلك سببًا في انتكاسته.

◆ **ثالثا: الرُّفقة السَّيِّئة:**

إنَّ الإنسان مدنيٌّ بطبعه، لا يستَعذب الحياةَ بعيدًا عن النَّاس، فلابدَّ له من صاحب يؤنسه ورفيق يسلِّيه، والصاحب ساحب كما يقولون، يترك في الغالب بصماته على صاحبه، إمَّا بصلاح أو فساد، فعن أبي موسى رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ

(19) «تفسير ابن كثير» (14/442).
(20) أخرجه مسلم (118).

وَالجَلِيس السَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[21] ولمَّا كان الأمر كذلك قال النَّبيُّ ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»[22].



فمجالسة الصَّالحين تقود إلى المعالي، ومجالسة الفسَّاق تبعث كما يقول ابن قدامة رحمه الله على: «مسارقة الطَّبع من أخلاقهم الرَّديئة، وهو داء دفين قلَّما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنَّه قلَّ أن يجالس الإنسان فاسقًا مدَّة، مع كونه منكرًا عليه في باطنه، إلاَّ ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فارقًا في النُّفور عن الفساد؛ لأنَّ الفساد يصير بكثرة المباشرة هيِّنًا على الطَّبع، ويسقط وقعه واستعظامه»[23].

فالصُّحبة السَّيِّئة منعطف خطير، لا يقتصر أثره على فساد الأخلاق، بل يتعدَّاه إلى ترك التَّديُّن، بل ربَّما إلى الخروج من الإسلام.

◆ **رابعا: وسائل الإعلام**

تميَّز هذا العصر عن غيره بانتشار وسائل الإعلام، الَّتي باتت تأخذ من وقت المسلم حصَّة الأسد، فهي من أعظم الوسائل تأثيرًا عليه بالخير والشَّرِّ، وأخطر أنواع هذه الوسائل القنوات المرئيَّة، لكونها قنوات فتَّانة، تنشر الشُّبهات والشَّهوات، الَّتي لها آثارها السَّيِّئة على شباب المسلمين لا سيما إذا لم تكن لديهم حصانة علميَّة، ولم يكونوا على درجة من الوعي والبصيرة بدينهم، فتضعف المقاومة عندهم، ويفقدون الثِّقة بعقيدتهم ومنهاج نبيِّهم ﷺ، وينساقون وراء السَّراب الَّذي يظنُّ أنَّه من أمتن البناء، فصارت المعالم الواضحات للأسف مبهمات، وصارت القواعد الرَّاسخات متغيِّرات، وبهذا استحسن النَّاس وسائل الغرب في التَّغيير.

إنَّها تقدِّم شرًّا منظَّمًا، قنوات تبثُّ العري والأفلام الجنسيَّة الهابطة، الَّتي تحرِّك مكامن الشَّهوة، فيبقى مشاهدُها مسلوب العقل، فلا ينتهي من مشاهدتها، ولا يستحي من ذي الجلال والإكرام.

قنوات تقدِّم برامج تدعو إلى النَّصرانيَّة واللاَّدينيَّة، تبيِّن أهدافها وتضلِّل بأفكارها، وتغري بأساليبها، وتشكِّك المسلمين في عقيدتهم، وقنوات تنشر العقائد المنحرفة، فهذه قنوات رافضيَّة وأخرى صوفيَّة وأخرى قاديانيَّة وأخرى حزبيَّة، وهكذا القائمة طويلة، تمثِّل السُّبُل الملتوية المنحرفَة عن جانبي الصِّراط المستَقيم ، والَّتي قال عنها النَّبيُّ الأمين ﷺ: «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ».

وبعضها تنشر الشَّعوذة جهارًا نهارًا، إمَّا باسم الرُّقية الشَّرعيَّة، وإمَّا باسم التَّداوي بالأعشاب، وكم اصطادت هذه القَنوات من النَّاس لعموم ضعفهم، وكم تأثَّروا بها لعظَم تلبيسها؟!

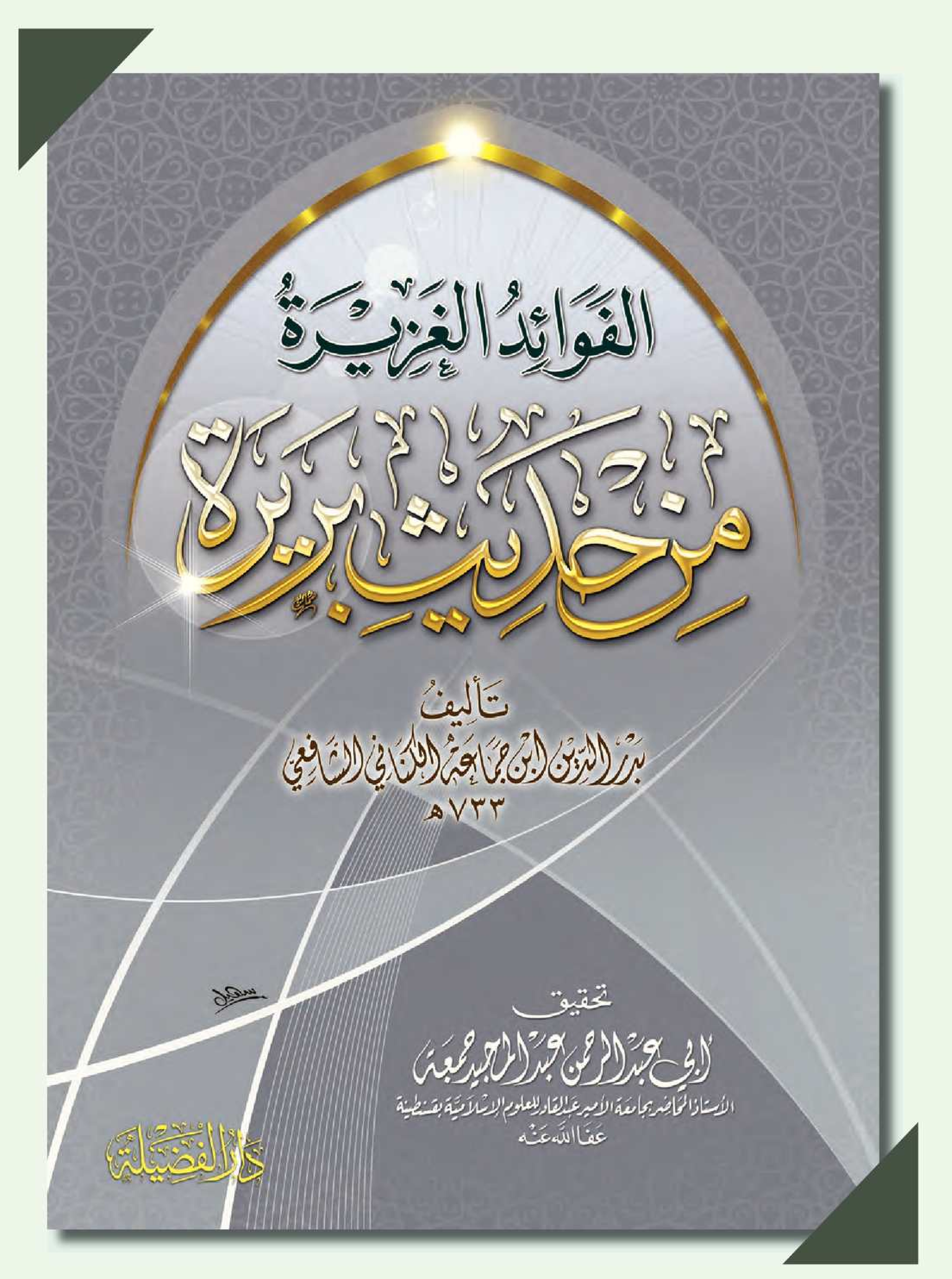
وبعضها قنوات إخباريَّة، تكتفي في الظَّاهر بتقديم المعلومة وأحداث السَّاعة، ولكنَّها إذ تفعلُ ذلك تبذل قصارى الجهد لاختراق البلاد الإسلاميَّة؛ لتثوير العامَّة على الولاة، بدعوى الطُّغيان، وكثرة الإجرام، تدَّعي أنَّ بثَّها نزيه، وأنَّها الخيرَ تريد، إمَّا ببيان طغيان الولاة، عبر روبرتاجات موجَّهة، أو بنقل شهادات حيَّة بزعمهم مفادها ما وصل إليه الحكَّام في سبيل الحفاظ على عروشهم، أو بدعوة بعض المعارضين للأنظمة عبر حصَّة دسمة.

ومن المؤسف جدًّا أنَّ بعض شبابنا ممَّن استقام فكرُه على إنكار الحزبيَّة المقيتة، وترك الوسائل المخالفة للشَّرع، صار يستَحسن من خلال مشاهدَتها الإضرابات والمسيرات حتَّى تزعزع يقينه، وتذبذب في قواعده وأصوله، والله المستعان.

ومن ذلك السُّم القاتل الهالك: شبكة الانترنيت الَّتي فاقت جميع وسائل الإعلام ضررًا بما يعرض فيها من التَّشكيك في العقائد ونشر البدع، وإثارة الشُّبهات ونشر الدَّعارة بالمجَّان، وتكمن خطورته في سهولة استعماله، وفي عدم وجود الرَّقيب ساعة تناوله ـ والله لا تخفى عنه خافية ـ، والمسلم لكثرة استعماله يضعف إيمانه شيئًا فشيئًا، فتقلُّ مراقبتُه لله جلَّ وعلا، نسأل الله السَّلامة والعافية.



(21) رواه البخاري (2101) ومسلم (2628).
(22) أخرجه أبو داود (4833)، والتِّرمذي (2378)، وهو حسن، انظر «الصَّحيحة» (927).
(23) «مختصر منهاج القاصدين» (167).


الفوائد الغزيرة
من حديث بريرة ﵂
تأليف
بدر الدين ابن جماعة الكناني الشافعي
٧٣٣ هـ
تحقيق
أبي عبد الرحمن عبد المجيد جمعة
الأستاذ المحاضر بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة
عفا الله عنه
دار الفضيلة



أ.د.محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

في انحلال الزواج بالخلع

▣ السُّؤال:

اختلعت امرأة من زوجها، وقد أصدرت المحكمة حكمًا بالتَّطليق عن طريق الخلع محتويًا آثارَ الطَّلاق، فهل ثمَّة فرق بينهما؟ وهل لهما نفس الأحكام؟ وجزاكم الله خيرًا.

▣ الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالخلعُ يكون بتراضي الزَّوج والزَّوجة عليه، فإنْ تعذَّر التَّراضي بينهما، فإنَّ للقاضي إلزام الزَّوج بالخلع، والحكم من قبل القاضي يُسمَّى تطليقًا، ويدلُّ عليه حديثُ ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ امرأةَ ثابتِ بنِ قيسٍ أتَتْ النَّبيَّ ﷺ فقالت: يا رسول الله! ثابت بن قيس ما أعتبُ عليه في خُلُقٍ ولا دِينٍ، ولكنِّي أكره الكفر في الإسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ؟ قالت: نعم، قال رسولُ الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً»[1]، فإنَّ ثابتًا وزوجته رَفَعَا أمرهما للنَّبيِّ ﷺ، وألزمَهُ الرَّسول بأن يقبل الحديقة ويُطلِّق.

هذا؛ وجمهورُ العلماء يَعُدُّون الخلعَ طلاقًا بائنًا خلافًا لمن عدَّه فسخًا، وهو الصَّحيحُ لمخالفته للطَّلاق من عدَّة وجوه منها:

- أنَّ الزَّوج في الطَّلاق أحقُّ بالرَّجعة فيه، أمَّا الخلعُ فقد ثبت بالنَّصِّ والإجماع أنَّه لا رجعةَ فيه.
- كما أنَّه ثبت بالسُّنَّة وأقوال الصَّحابة أنَّ العِدَّة في الخُلْع حيضةٌ واحدةٌ، بينما العِدَّة في الطَّلاق ثلاثةُ قروءٍ.
- والخلع ثبت بالنَّصِّ جوازُه بعد طلقتين، ووقوع الثَّالثة بعده، بينما الطَّلاق محسوبٌ من الثَّلاث، فلا تحلُّ له حتَّى تَنكحَ زوجًا غيره.

ومِن هنا كانت أحكام الطَّلاق مُباينة لأحكام الفسخ ومُنتفية عنه.

فهذا ما تقرَّر فقهًا، لكن المعتَبر ما تجري عليه محاكم الأحوال الشَّخصية قضاءً، والعلمُ عند اللهِ تعالى.

▣ ▣ ▣

(1) أخرجه البخاري (5273)، والنسائي (3463)، وابن ماجه (2056)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فتاوى شرعية

في حكم الرقية في الماء والزيت والعسل

▣ السُّؤال:

هل يجوز استعمال الماء والزيت والعسل ونحوها في الرقية الشرعية؟ وجزاكم الله خيرا.

▣ الجواب:

إذا كانت الرُّقيةُ الخاليةُ من الشِّرك جائزةً بقراءة سورٍ من القرآن والأدعية والأذكار الثَّابتة، فإنَّه لا يُمنع التَّداوي بها مع ماءٍ قُرِئَ فيه القرآنُ، أو عسلٍ أو زيت، وأشباهِ ذلك من الأدوية والأعشاب الطِّبِّيَّة المباحة، لمن له معرفةٌ بأمور الطِّبِّ فيما يخصُّ التَّداويَ بها؛ ذلك لأنَّ الله تعالى أودع في ذاتها نفعًا لتكون بمفردها أو باختلاطها مع غيرها من الأدوية والرُّقى علاجًا لمختلف الأمراض البدنيَّة.

وقد قال تعالى في شأن الماء: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: 9]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: 48]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30].

وفي شأن العسل قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: 69].

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ، أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ، أَوْ كَيَّةٍ بِنَارٍ[2]، وَأَنَا أَنْهَى أُمَّتِي عَنِ الكَيِّ»[3].

وفي الحديث: «صَدَقَ اللهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ»[4].

وفي الزَّيت قال ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ»[5].

وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه موقوفًا: «عَلَيْكُمْ بِالشِّفَاءَيْنِ: العَسَلِ وَالقُرْآنِ»[6].

قال ابن القيِّم رحمه الله في معنى الحديث: «فجمع بين الطِّبِّ البشريِّ والإلهيِّ، وبين طبِّ الأبدان وطبِّ الأرواح، وبين الدَّواء الأرضيِّ والدَّواء السَّمائيِّ»[7].

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل لهذه الأدوية خصائصَ ذاتيَّةً ربَّانيةً بآحادها أو مع اختلاطها بغيرها من الأعشاب الأخرى في مكافحة المرض والشِّفاء منه ثابتةً شرعًا وطبًّا، فلا يُمنع من أن يكون من تمام النَّفع أن يَجمعَ بين أعيانها المباركة ما هو مباركٌ بريق يُجْمَع فيه الآياتُ والأذكارُ الصَّحيحةُ الثَّابتةُ، ثمَّ يُنفث في هذه الأعيان، فإنَّ في الكلِّ شفاءً لأسقام المؤمنين البدنيَّة، وفي القرآن شفاءٌ لها وللأمراض القلبيَّة والنَّفسية، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصِّلت: 44]، وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

وإذا عُلم أنَّ النَّفع حاصلٌ باختلاطها مع غيرها من الأدوية بتقدير الله تعالى لمن له درايةٌ بها؛ فلا تَمتنع الرُّقية بمثل هذه الكيفيَّات المبنيَّة على التَّجربة العمليَّة الخالية من أيِّ محذورٍ شركيٍّ، وقد وردت جُملةٌ من الأحاديث تدلُّ على الجواز، منها: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ»[8]، ويؤكِّد ذلك حديثُ عليٍّ رضي الله عنه قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ يُصَلِّي، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى الأَرْضِ فَلَدَغَتْهُ عَقْرَبٌ، فَتَنَاوَلَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَعْلِهِ فَقَتَلَهَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: لَعَنَ اللهُ العَقْرَبَ، لَا تَدَعُ مُصَلِّيًا وَلَا

---

(2) قال ابن حجر في «الفتح» (10/ 138): «ولم يُرِدِ النبيُّ ﷺ الحصرَ في الثلاثة، فإنَّ الشِّفاء قد يكون في غيرها، وإنَّما نبَّه بها على أصول العلاج، وذلك أنَّ الأمراض الامتلائيَّة تكون دمويَّةً وصفراويةً وبلغميَّةً وسوداويةً، وشفاء الدَّمويَّة بإخراج الدَّم، وإنَّما خصَّ الحجم بالذِّكر لكثرة استعمال العرب وإلفهم له.. وأمَّا الامتلاء الصَّفراوي وما ذكر معه فدواؤه بالمسهِّل، وقد نَبَّه عليه بذكر العسل.. وأمَّا الكَيُّ فإنَّه يقع آخرًا لإخراج ما يتعسَّر إخراجه من الفضلات».

(3) أخرجه البخاري (5681)، من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

وقد كوى النَّبيُّ ﷺ سعدَ بنَ معاذ وغيرَه، واكتوى غيرُ واحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم، قال ابن حجر في «الفتح» (10/ 138): «وإنَّما نهى عنه مع إثباته الشِّفاءَ فيه إمَّا لكونهم كانوا يرون أنَّه يحسم المادَّةَ بطبعه فكرهه لذلك، ولذلك كانوا يبادرون إليه قبل حصول الدَّاء لظنِّهم أنَّه يحسم الدَّاءَ، فيتعجَّل الَّذي يكتوي التَّعذيبَ بالنَّار لأمرٍ مظنون، وقد لا يتَّفق أن يقع له ذلك المرض الَّذي يقطعه الكيُّ، ويؤخذ من الجمع بين كراهته ﷺ للكيِّ وبين استعماله له أنَّه لا يُترك مُطلقًا ولا يُستعمل مُطلقًا، بل يُستعمل عند تعيُّنه طريقًا إلى الشِّفاء مع مصاحبة اعتقادِ أنَّ الشِّفاء بإذن الله تعالى».

(4) متَّفقٌ عليه: أخرجه البخاري (5684)، ومسلم (2217)، من حديث أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه.

(5) أخرجه التِّرمذي (1851)، وابن ماجه (3319)، والحاكم (7142) من حديث عمر رضي الله عنه، انظر: «الصَّحيحة» (379).

(6) أخرجه ابن ماجه (3452) مرفوعًا، والصَّحيح أنَّه موقوفٌ على ابن مسعود رضي الله عنه، قال ابن كثير في «تفسيره» (576/2): «وهذا إسنادٌ جيِّدٌ، تفرَّد بإخراجه ابن ماجه مرفوعًا، وقد رواه ابن جرير عن سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان. هو الثَّوري. به موقوفًا، ولهو أشبه».

(7) «زاد المعاد» لابن القيِّم (34/4).

(8) أخرجه مسلم (2199)، من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

غَيْرَهُ، أَوْ نَبِيًّا وَلاَ غَيْرَهُ إِلاَّ لَدَغَتْهُمْ، ثُمَّ دَعَا بِمِلْحٍ وَمَاءٍ، فَجَعَلَهُ فِي إِنَاءٍ، ثُمَّ جَعَلَ يَصُبُّهُ عَلَى إِصْبَعِهِ حَيْثُ لَدَغَتْهُ وَيَمْسَحُهَا وَيُعَوِّذُهَا بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ»[9].

والحديث تضمَّن فائدتين:

الأولى: جوازُ معالجة سمِّ العقرب بالرُّقية الشَّرعية، وهو العلاج الإلهي.

والثَّانية: الاستعانة بالماء والملح وصبُّه على الموضع الجريح، وهو العلاج الطَّبيعي.

وخصوصُ الفائدة الأولى بالعقرب لا ينفي جوازَ الاستعانة بالفائدة الثَّانية في قرحة أو جرح ونحوهما، لعلمنا أنَّ فاتحة الكتاب لوحدها كافيةٌ في رقية العقرب على ما ثبت في قصَّة اللَّديغ، ولأنَّ استعمال الملح ممزوجًا بالماء له فوائد، منها: تبرئةُ الجرح، والتئامُ اللَّحم، وتنْقيةُ الدَّم، على ما هو معروفٌ في الطِّبِّ الحديث[10].

فاستعماله ﷺ ذلك على سبيل التَّداوي دليلٌ على استحباب استعمال الأعيان الطِّبِّيَّة مقرونةً بالذِّكر حالَ المعالجة، ويزيده تأكيدًا ما ثبت في «الصَّحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا اشْتَكَى الإِنْسَانُ الشَّيْءَ مِنْهُ أَوْ كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَوْ جُرْحٌ؛ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بِإِصْبَعِهِ هَكَذَا ـ وَوَضَعَ سُفْيَانُ سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا ـ: بِاسْمِ اللهِ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا، لِيُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا بِإِذْنِ رَبِّنَا»[11].

قال النَّووي: «ومعنى الحديث: أنَّه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السَّبَّابة، ثمَّ يضعها على التُّراب فيَعْلَق بها منه شيءٌ، فيمسح به على الموضع الجريح أو العليل، ويقول هذا الكلامَ في حال المسح»[12].

ووضعُ النَّبيِّ ﷺ سبَّابته بالأرض ووضعُها عليه يدلُّ على استحباب ذلك عند الرُّقية على ما ذكره القرطبي[13].

ويقوِّي هذا ما أخرجه الحاكم وابن منده وأبو نعيم في قصَّة الشِّفاء بنت عبد الله رضي الله عنها: «أَنَّهَا كَانَتْ تَرْقِي بِرُقًى فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَّهَا لَمَّا هَاجَرَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَدِمَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ! إِنِّي كُنْتُ أَرْقِي بِرُقًى فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَقَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَعْرِضَهَا عَلَيْكَ، فَقَالَ: اعْرِضِيهَا، فَعَرَضَتْهَا عَلَيْهِ، وَكَانَتْ مِنْهَا رُقْيَةُ النَّمْلَةِ، فَقَالَ: ارْقِي بِهَا وَعَلِّمِيهَا حَفْصَةَ، بِاسْمِ اللهِ صَلُوبٌ، حِينَ يَعُودُ مِنْ أَفْوَاهِهَا وَلَا تَضُرُّ أَحَدًا، اللَّهُمَّ اكْشِفِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، قَالَ: تَرْقِي بِهَا عَلَى عُودِ كُرْكُمٍ سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَتَضَعُهُ مَكَانًا نَظِيفًا ثُمَّ تُدَلِّكُهُ عَلَى حَجَرٍ بِخَلٍّ خَمْرٍ مُصَفًّى وَتَطْلِيهِ عَلَى النَّوْرَةِ»[14].

وفي القصَّة ترخيصٌ من النبيِّ ﷺ للمرأة وهي: الشِّفاء بنت عبد الله رضي الله عنها في مداواة النَّملة، فقد سمَّت الله تعالى ورَجَتْهُ بأن يُزيل البأس ويكشف المرضَ، وبعد ذلك استخدمت الدَّواءَ المعالج للقروح والمتمثِّل في عود الكُرْكُم[15]، ثمَّ دلكتْ عود الكُرْكُم على حجر بخَلٍّ خمر مصفًّى، فعلق على العود الدَّواء، وطلته على القرحة، وعليه فلا يَمتنع إلحاقُ غيره به إذا أظهر نُجوعًا ونفعًا وخلا من مَفاسدَ، وهذا الطَّريق وإن كان ضعيفًا فيصلح في المتابعات على ما قرَّره الشَّيخ الألباني[16]، والعلم عند الله تعالى.

(9) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنَّف» (23553)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (2340) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وله شاهدٌ من حديث عائشة رضي الله عنها بلفظ: «لَعَنَ اللهُ العَقْرَبَ ما تَدَعُ المُصَلِّي وَغَيْرَ المصلي، اقْتُلُوهَا فِي الحِلِّ وَالحَرَمِ»، أخرجه ابن ماجه (1246)، [انظر: «الصحيحة» (547)].

(10) «التداوي بلا دواء» د. أمين رويحة (132)، وللملح فوائد أخرى ذكرها ابن القيِّم في «الطبِّ النبوي» (182).

(11) أخرجه البخاري (5745)، ومسلم (2194). واللفظ له ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(12) «شرح النَّووي على مسلم» (14/ 184).

(13) «فتح الباري» (10/ 208).

(14) أخرجه الحاكم (6969)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (6/3371)، وعزاه ابن حجر في «الإصابة» (4/ 342) لابن منده.

(15) و«عود الكركم»: هو عبارة عن نبات معمَّر، اسمه العلمي: كُركوما لُونْجا، وله أزهارٌ صفراء، وأصوله تُستعمل تابلاً وصبغًا، والكركم فيه زيوتٌ عطريةٌ طيَّارةٌ، ويُستعمل مطهِّرًا للاستعمال الخارجي. انظر: «الطبُّ ورائداته المسلمات» د. عبد الله عبد الرزَّاق (82).

(16) «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة» للألباني (1/344).



في حكم الزِّيادة على المبلغ الحقيقي في الفاتورة

▣ السُّؤال:

أعمل بائعًا في محجرة أحد الخواصّ، ويطلب منّي وكلاء الزَّبائن خفض الثَّمن، فأجاريهم بإذن من صاحب المحلّ، وعند تحرير الوصل أو الفاتورة يطلبون كتابتها بالثَّمن الأصلي دون الثَّمن المنقوص، فما حكم هذا العمل؟ وبارك الله فيكم.

▣ الجواب:

إثباتُ زيادةٍ إضافيَّة على المبلغ الحقيقيِّ في الفاتورة منكرٌ لاشتماله على الكذب والزُّورِ والغشِّ من جهة، وهو منهيٌّ عنه بقوله ﷺ: «..إِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[17]، ولقوله ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»[18]، والوصل المستعمل بمثابة شهادة زور، وقد نهى الشَّرع عن الزُّور وعَدَّهُ من أكبر الكبائر[19].

كما تتضمَّن ـ من جهة أخرى ـ التَّعاون مع صاحب الشَّاحنة إن كان وكيلاً على أكلِ مال موكِّله بالباطل، حيث يُثبت له بواسطة الفاتورة المبلغ الكاذب ليأخذ منه زائدًا عن أجرةِ وكالته، فإن لم يكن وكيلاً فإنَّه يغشُّ النَّاس أيضًا بواسطة الفاتورة على أنَّه اشتراها بالمبلغ الموضوع فيها، ليعطوه أزيد عليها، وكلا الأمرين يدخل في عموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [البقرة: 188]، وقوله ﷺ: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[20]، وقوله ﷺ: «لاَ يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ»[21]، وعليه فلا يُشرع التَّعاون معه على هذا الإثم والاعتداء بواسطة الفاتورة الكاذبة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة: 2].

هذا، ولا يدخل إذن مالك المحجرة ورضاه في هذا التَّصرُّف الممنوع شرعًا؛ لأنَّ تحريم الغشِّ والزُّور والخداع والكذب ونحوها من حقوق الله تعالى الَّتي لا تقبل التَّراضي والإذن، بل المالك إن علم منعها ورضي بها فقد وقع في معصية وإن لم يفعلها؛ لأنَّ الرِّضا بالذَّنب ذنب، والإعانة على المعصية ـ ولو بالإذن والتَّرخيص ـ معصية.

وأخيرًا، فالواجب على الوكيل وغيره أن يؤدِّي الأمانة إلى من ائتمنه، ويُقلع عن التَّعدِّي على أموال النَّاس بالحيلة والكذب والخداع، وعليه أن يندم ويتوب ويستتبع توبتَه بالاستغفار والعمل الصالح، ومن شرط التَّوبة التَّخلُّص من المال الحرام، وردّ المظالم إلى أهلها، فإن لم يُعرفوا أنفقها في مصالح المسلمين ومنافعهم، والعلمُ عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصَلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسَلَّم تسليمًا.

(17) أخرجه البخاري (6094)، ومسلم (2607)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(18) أخرجه مسلم (101)، وأحمد (9396) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(19) أخرجه البخاري (5976)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، ولفظه: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟ قلنا: بلى يا رسول الله قال: الإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ. وكان متكئًا فجلس. فقال: أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت».

(20) أخرجه مسلم (2564)، وأحمد (7727)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(21) أخرجه أحمد (20695)، والبيهقي في «السنن الكبرى»: (100/6)، من حديث حنيفة الرقاشي رضي الله عنه، والحديث صحّحه الألباني في «الإرواء» (279/5).



ذكرياتي مع الشيخ..





د. رضا بوشامة
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

كان ذلك في أيَّام حجٍّ سنة (1410هـ) وهي السَّنة الَّتي أنهيت فيها دراستي الثَّانوية بالمعهد الثَّانوي بالجامعة الإسلاميَّة، وهي أوَّل حجَّة حججتها.

بعد أن وصلت إلى مكَّة المكرَّمة ـ شرَّفها الله ـ استضافني أحد الطَّلبة الجزائريِّين في مسكنه الجامعي بالعزيزيَّة فتركت عنده أغراضي استعدادًا للسَّفر بعد الحجِّ.

وكان طرق مسامعنا أنَّ الشَّيخ الألباني حاجٌّ هذه السَّنة.

وفي اليوم الثَّامن من ذي الحجَّة انطلقت إلى منًى ضحى، وقدَّر الله أن التقيت زميلي الدُّكتور جمال عزُّون وكان آنذاك طالبًا في كليَّة الحديث الشَّريف.

فنمى إليَّ أو نميت إليه خبر قدوم الشَّيخ وكلانا يبحث عن مكان وجوده.

لكن لا أحد منَّا اهتدى إلى ذلك، إلاَّ أنَّ الأخ جمالاً كان في حوزته رقم هاتف أحد أصهار الشَّيخ فبحثنا عن هاتف عمومي (ولم يكن يومئذ جوَّالات) فاتَّصل فأخبرونا أنَّ الشَّيخ في مكان يسمَّى (الرّبوة) في منًى، ومنًى كلُّها فِجاج.

فبدأنا رحلة البحث عن الشَّيخ، نسأل هنا وهناك، ونتسمَّع أصوات المدرِّسين والمرشدين في الخيم لعلَّنا نظفر بصوت يشبه صوت الشَّيخ.

فمن ضحى ذاك اليوم ونحن نبحث إلى أن وصلنا إلى المكان الَّذي يسمَّى (الرّبوة) بعد المغرب، فالتقينا ببعض الشَّباب من طلبة العلم من أهل المدينة كنت على معرفة بهم فسألناهم عن الشَّيخ، فوجَّهونا إلى مكان وجوده.

فعند اقترابنا من المخيَّم إذا بصوت الشَّيخ ينبعث منه فتذكَّرت تلك الأشرطة الَّتي كنَّا نستمع إليها قبل جلوسنا عنده، وتعجَّبت من أولئك الشَّباب الَّذين بَقَوْا في مخيَّمهم وهم على علم بمكان الشَّيخ؛ إلاَّ أنَّهم لم يكونوا على معرفة بقدره وفضله وعلمه.

دخلنا المخيَّم فإذا بالشَّيخ جالس على كرسي يلقي درسًا على حجَّاج ذاك المخيَّم، فجلسنا نستمع إلى كلامه، وكلُّنا فرح وسرور بلقائه، خاصَّة إذا أيقنت حقيقةً لا خيالا أنَّك تحجُّ حجَّتك الأولى مع عالم زمانه ومحدِّث عصره؛ وسترى تطبيق ما كتبه عن المناسك تطبيقًا فعليًّا عسى أن تحظى بحجَّة كما حجَّها النَّبيُّ ﷺ.

بعد أن أنهى الشَّيخ كلمته أجاب عن الأسئلة، ثمَّ دخل خيمته المخصَّصة له داخل الخيمة الكبيرة، وهي محتوية على سرير وفراش للشَّيخ وبعض الأمور الَّتي يستعين بها على الوضوء وغيره.

تشاورت مع أخي جمال وقلنا لا بدَّ من البقاء مع الشَّيخ طوال حجِّه.

فما كان إلاَّ أن استئذنَّا في البقاء مع أهل المخيَّم وغالبهم من الأردن إن لم يكن كلّهم، وكان برفقة الشَّيخ مجموعة من تلاميذه من أهل الأردن وغيرهم، فأذنوا بذلك جزاهم الله خيرًا، ففرحنا بذلك وبقينا في المخيَّم نتعرَّف على بعض

طلاَّب العلم من طلبة الشَّيخ، وممَّن تعرَّفنا عليه وقرَّبنا إليه مسجِّلُ أشرطة الشَّيخ أبو ليلى الأثري، فكان يسجِّل للشَّيخ تلك الحلقات، وكنت أحمل معي أيضًا مسجِّلاً فصرت أسجل للشَّيخ كما يسجِّل.

في اليوم التَّالي وهو يوم عرفة، بدأ التَّهيُّؤ للصعود إلى عرفة ركب الشَّيخ سيَّارة خاصَّة مع صهره وأبي ليلي، وركبنا حافلة صغيرة مع طلبة الشَّيخ، ولمَّا وصلنا إلى عرفة أخذ كلٌّ منَّا مكانه في الخيمة المخصَّصة للحملة، وجلست قريبًا من الشَّيخ أرقب ما يصنع في هذا اليوم، فرأيت فيه الاتِّباع للسُّنَّة والاجتهاد في العبادة ما لم نكن نسمعه عن الشَّيخ، فلم يزل يذكر الله تعالى ويكبره ويعظمه، بل قد يستلقي أحدنا من شدَّة التَّعب والحرارة (ولم يكن يومئذ مكيِّفات في الخيم) والشَّيخ باق على ذكره، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويرشد المخطئ، إذا رأى شخصًا يقرأ في كتاب الله نصحه بالذِّكر الوارد في هذا اليوم لأنَّه أفضل من قراءة القرآن، ويأتيه السَّائل يسأله فيجيب الشَّيخ عن سؤاله، وأذكر أنَّه جاءه أحد العمَّال المصريِّين وكان يشتغل في نصب خيام الحجاج، وبدا له أن يحجَّ في ذاك اليوم، فاستفسر منه الشَّيخ هل النِّيَّة عقدها ذاك اليوم أم قبله؟ فأجابه بأنَّه لما رأى الحجيج أراد أن يحجَّ ونواه، فأمره الشَّيخ أن يلبِّي بالحجِّ ويحرم من مكانه.

وكان الشَّيخ يؤتى له في بعض الأحيان بالحلو البارد (البطِّيخ) فكان يطعمني منه - جزاه الله خيرا - لأنَّني كنت أقرب النَّاس مجلسًا منه في ذاك اليوم، ويعلم الله كم تأثَّرت بكثرة عبادته وذكره، خلاف ما يشاع عنه أنَّه يعنى فقط بالأسانيد ولا اجتهاد له في العبادة، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28].

وفي مغرب ذاك اليوم وعند النُّفرة ركب الشَّيخ سيارته وركبنا معه الحافلة المخصَّصة لنا، وكان الزِّحام شديدًا، فالتقينا ببعض أهل اليمن يركبون حافلة لهم فبلَّغوا سلام الشَّيخ مقبل رَحِمَهُ الله للشَّيخ الألباني وهو بدوره أمرهم بتبليغ سلامه للشَّيخ مقبل كثيرًا.

وفي اليوم التَّالي وهو يوم النَّفر من مزدلفة إلى منى فقدنا سيارة الشَّيخ فافترقنا، وقمنا بأعمال الحجِّ في ذاك اليوم دون أن نكون مع الشَّيخ وتحسَّرنا كما تحسَّر من كان معنا من تلامذته.

وبعد أن أدينا المناسك رجعنا إلى الخيمة في منى والتقينا بالشَّيخ مرَّة أخرى، فرحب كعادته وسأل عن أوضاعنا وحجّنا جزاه الله خيرًا.

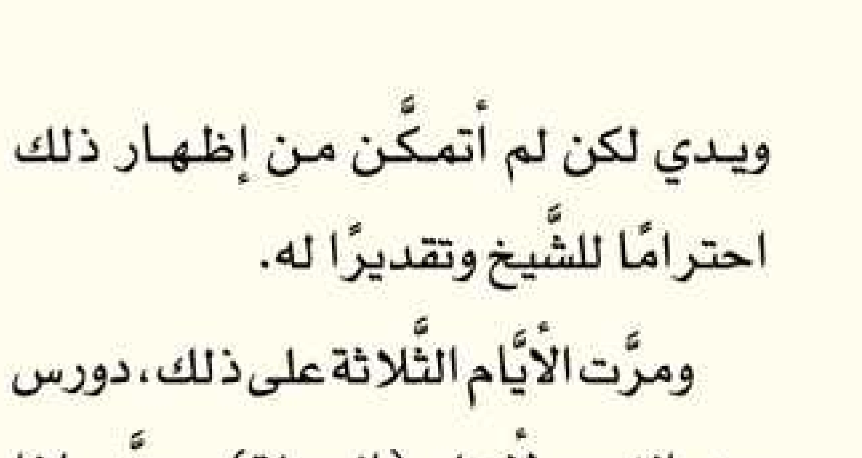
وفي اليوم الأوَّل من أيَّام التَّشريق رَافَقْنَا الشَّيخ إلى المذبح لأداء نسك الذَّبح مع صهره بسيَّارته الخاصَّة ورافقنا أبو ليلى ورجل من أهل مكَّة ممَّن يعرف الشَّيخ، وذبح الشَّيخ كبشًا أقرن أملح من أجود الغنم وهو ما يسمَّى بالحرِّي، أمَّا أنا وأخي جمال فبحكم كوننا من طلبة الجامعة الإسلاميَّة اكتفينا بأقلِّ الغنم ثمنًا، ولما رآهما الشَّيخ دعا لنا بالبركة فيهما.

وفي موضع النَّحر دخلنا مع الشَّيخ وصهره والرَّجل المكِّي، وحدث أن شرد جمل بين الإبل كاد أن يصدمنا فتفرَّق النَّاس يمينًا وشمالاً، ولمَّا رجعت إلى الشَّيخ أصابت ثيابي دماء النَّحر والذَّبح فلمَّا رآني الشَّيخ تمثَّل لي بالمثل السُّوري: «يلِّي بدو يلعب مع القط بدو يتحمل خراميشو».

وعند العودة إلى المخيَّم اغتنمت فرصة الانفراد بالشَّيخ، فأخبرته أنَّني أحبُّه في الله، فردَّ عليَّ بما جاءت به السُّنَّة.

وفي اليوم ذاته أرسلت ابنة الشَّيخ وهي من أهل جدَّة - فيما أذكر - كبد







الشَّاة الَّتي ذبحها، فأطعمنا منها بيده، وشرب من مرقها وكان يحبُّه.

وفي أيَّام التَّشريق كان الشَّيخ يصلِّي بنا ويدرس بعد الفجر، ويبقى في درسه حتَّى يرى بعض الرُّؤوس تتطأطأ، فهنا يوقف درسه ويتَّجه إلى خيمته الخاصَّة، وكنت أجلس بجانبه أستمع لدروسه وفوائده، ثمَّ بعد ذلك يُؤذن لنا بدخول الخيمة الخاصَّة أنا وأخي جمال إذ أصبحنا من خاصَّته، ويتوافد عليه الكثير ممَّن سمع بالشَّيخ من الدَّكاترة والمشايخ وأهل العلم، فكانت لقاءات ومناقشات داخل خيمته ولا يؤذن إلاَّ للبعض، أمَّا أنا وجمال فلم نكن نحتاج إلى إذن، خاصَّة أنَّا بقينا مع الشَّيخ من اليوم الثَّامن، فَعَرَفَنَا ـ جزاه الله خيرًا ـ وعرفنا من كان يقوم على خدمته أمثال أبي ليلى الذي كان كالحاجب إلاَّ أنَّه يُغلب على أمره من كثرة الزُّوار، حتَّى قال له الشيخ مرَّةً: إنَّا وضعناك حاجب النَّاس، لكن لم تقدر على ذلك أو كلمةً نحوها، ويسأل أين الحاج من كثرة الزِّحام عليه فلا يكاد يتخلَّص منهم إلاَّ بعد عناء ومشقَّة.

بل طلب منِّي أبو ليلى مساعدته في خدمة الشَّيخ، وكنت سعيدًا جدًّا بذلك، حيث جلست عن يسار الشَّيخ وأبو ليلى عن يمينه، فيقبض بيدي وأقبض بيده والشَّيخ متَّكئ على ساعدي وساعده؛ ويحدث النَّاس ويجيب عن أسئلتهم واستفساراتهم، فيبقى الوقت الطَّويل على ذلك، وكنت أحسُّ بثقل في ساعدي ويدي لكن لم أتمكَّن من إظهار ذلك احترامًا للشَّيخ وتقديرًا له.

ومرَّت الأيَّام الثَّلاثة على ذلك، دورس بعد الفجر لأهل (الحملة)، حتَّى إذا شَعَرَ الشَّيخ أنَّ بتعب جلسائه وحاجتهم إلى النَّوم، استأذن ودخل خيمته، فأفاد فيها من يأتيه من الزُّوَّار.

وأذكر في هذه الأيَّام أنِّي رأيت عجبًا من حلم الشَّيخ وصبره؛ إذ أتاه رجل كبير السِّنِّ عليه مظاهر البداوة أمسك الشَّيخ من ثوبه ليسأله، فتلطَّف الشيخ معه وقال له: اصبر عليَّ فالله ابتلاك بي، ثم أجابه عن سؤاله، فذكَّرني بما كان عليه النَّبي ﷺ من حلم وأناة وصبر على جفاء الأعراب.

فتلك المواقف لا يمكن للإنسان نسيانها، بل ينسى نفسه ليبقى فترة أطول يستفيد من علم الشَّيخ وسمته، وهذا حصل لي ولأخي جمال، فلم نستطع في تلك الأيَّام مغادرة المكان حتَّى لا يفوتنا شيء، فبقينا بإحرامنا ونحن حلال لبُعْد المسافة التي بيننا وبين مكان وجود أمتعتنا، حتَّى ظنَّ بعض من رآنا كذلك أنَّ للشَّيخ فتوى في البقاء على الإحرام أيَّام التَّشريق، فبيَّنَّا لهم أنَّ الأمر غير ذلك.

انتهت أيَّام التَّشريق فعاد الشَّيخ إلى بيت ابنته بجدَّة، فما كان منَّا إلاَّ أن طفنا طواف الوداع، واتَّجهنا نحو جدَّة فالتقيناه مرَّة أخرى في المسجد، فتعجَّب رحمه الله من صنيعنا وسلَّم علينا ودعا لنا جزاه الله عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء على ما قدَّم.



رسالةٌ في شرحِ حديثِ دعاءِ الهَمِّ والحُزن

تأليف
شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله
(ت 728 هـ)

قرأها وعلّق عليها:

عمّار تمالت

إنَّ من أهمِّ الوظائف الَّتي يقومُ بها العبدُ المسلمُ في شهر رمضان المبارك على وجه الخصوص وفي غيره من الشُّهور والأيَّام على وجه العُموم: دعاءَ الله تعالى والالتجاء إليه، وهو من العبادات المهمّة التي لا يستغني عنها العبدُ، فهو من أقرب الوسائل لتقوية الصلة بالله تعالى، وشحنِ الإيمان في القلب، وتحصين النفس والبدن من الشرور والآفات والأضرار.

وقد كان من هَدْي النَّبيِّ ﷺ الالتزامُ بأدعيةٍ مخصوصة، في أحوالٍ وأزمنة محدودة، وثبتت عنه جملةٌ من الأدعية الَّتي تُعَدُّ من جوامع كَلِمه عليه الصَّلاة والسلام؛ لما تحويه من معانٍ سامية مؤثِّرة، ولما تتَّسمُ به ألفاظُها من أساليبَ بلاغيَّةٍ رائعة.

والمطلوبُ من الدَّاعي الذي يرجو أن ينفعَه دعاؤُه ويستجيبَ له ربُّه: أن يفقَه الدعاءَ الذي يقولُه، ويتدبَّر في ألفاظه التي يردِّدُها بلسانه، ولا يقتصرُ على حفظها واستحضارِها، فإنّ فقهَ الدعاءِ يُعدُّ من أكبر أسباب تحصيل عوائدِه وجَنْيِ فوائده.

ومن الأدعية التي يحفظُها ويردِّدُها كثيرٌ من المسلمين: الدعاءُ الذي رواه لنا الصحابيُّ الجليلُ عبدالله بنُ مسعود رضي الله عنه، المعروفُ بدعاءِ الهَمِّ والحُزن، وهو من الأدعيةِ الجامعةِ المهمَّة في حياةِ المسلم، وفيه علاجٌ ناجعٌ لما يصيبُ العبدَ من الآفاتِ والضغوطِ النفسيّة التي لا يخلو منها أحدٌ في عصرنا هذا، وقد حثَّ النبيُّ ﷺ على حفظ هذا الدُّعاء وتعلُّمه.

وقد وقفتُ على رسالةٍ تضمّنَتْ فائدةً من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية حول هذا الحَديث المذكور فيه هذا الدعاء الشريف، شرح فيها شيخُ الإسلام ألفاظَه، وذكر معانيَه، وربطَ ذلك بتحقيقِ أحدِ أركان الإيمان والتَّوحيد وهو الإيمانُ بالقدر، وبيَّن ضلال مَنْ ضلَّ في فهم هذا الأصل العظيم، فجاء كلامُه رحمه الله مُقعَّداً مُؤسَّساً.

والرسالة ضمن مجموعٍ نفيسٍ اقتنيتُ صورةً رقميّةً منه من المكتبة السليمانيّة بإصطنبول[1].

والمجموع محفوظ في مكتبة أيا صوفيا برقم (1596)، وتشغلُ هذه الرسالة ستَّ صفحاتٍ منه (51أ . 53أ)، وهو بخطِّ محمَّد بن موسى ابن إبراهيم الحبَّال الأنصاري الحرَّاني[2]، وصرَّح في بعض الرَّسائل أنَّه نقلها من خطِّ أبي عبدالله محمَّد بن محمَّد ابن أحمد بن المحبِّ المقدسي وهو نقلها من خطِّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة.

ووقع في رسائل المجموع أخطاءٌ عديدةٌ، وتخلَّلها سقطُ كلماتٍ وعباراتٍ في عدَّة مواضع، ولعلَّ ذلك من صعوبة قراءةِ خطِّ شيخ الإسلام ابن تيميَّة الَّذي نُقل منه، ومن ذلكُم السَّقط ما وقع في بداية رسالتنا هذه كمَا سيأتي.

(1) سبق أن نقلتُ من هذا المجموع فوائد من كلام شيخ الإسلام نُشرت في هذه المجلَّة الغرَّاء.
(2) ذكر نسبه كاملاً في الصفحة (12ب) من المجموع.

⊙ وهذا نصُّ الرسالة:

كلامٌ على حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :
«اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابن عبدك، وابنُ أَمَتك» الحديث
لشيخ الإسلام تقي الدِّين أبي العبَّاس
أحمد بن تيميَّة الحرَّاني
قدَّس الله تعالى روحَه، ونوَّر ضريحَه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية رضي الله عنه :

فصلٌ

الدُّعاءُ الَّذي رواه الإمام أحمد رضي الله عنه وغيرُه ورواه ابنُ حبَّان في «صحيحه»[3]، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصاب عبدًا قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللَّهمَّ إنِّي عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أَمَتك، ناصيَتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤُك، أسألُك بكل اسم هو لك، سمَّيْتَ به نفسَك، أو أنزلْتَه في كتابك، أو علَّمْتَه أحداً من خَلْقك، أو اسْتَأْثَرْتَ به في علم الغيب عندك، أن تجعلَ القرآنَ ربيعَ قَلْبي، ونورَ صَدْري، وجَلاءَ حُزْني، وذَهابَ هَمِّي وغَمِّي، إلا أَذْهَبَ الله هَمَّه وغَمَّه، وأَبْدَلَه مكانَه فرَحًا»، قالوا: يا رسولَ الله أَفَلا نتعلَّمُه؟ قال: «بلى ينبَغي لمن سمعَه أن يتعلَّمَه».

⊙ هذا الحديث فيه فوائد:

منها: أنَّ أسماءَ الله تعالى أكثرُ من تسعةٍ وتسعين اسمًا، وأنَّ قولَه في الحَديث الصَّحيح: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلاَّ واحدًا، مَن أَحْصاها دخَل الجنَّةَ»[4] [معناه][5] إمَّا المُحْصَى؛

(3) الحديث في مسند الإمام أحمد (3712)، وصحيح ابن حبان (972) ومستدرك الحاكم (509/1)، وابن السُّنِّي في «عمل اليوم واللَّيلة» (339) وغيرها، وهو من طريق أبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه ، ولم يُعرف اسمُ أبي سلمة الجهني، فإن كان موسى بنَ عبدالله ابن عبدالرحمن الجهني ـ وهو ثقة من رجال مسلم ـ سلمَ به الحديثُ من الضَّعف، وإلاَّ فإنَّ أبا سلمة الجُهني يُعدُّ من المجاهيل.
وقد حسَّن الحديثَ الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله كما نقله عنه ابنُ علاَّن في «الفتوحات الربانية في تخريج الأذكار النواوية» (13/4)، وأورده الشيخ الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (199) وانتهى إلى تصحيحه.
(4) أخرجه البخاري (2736)، ومسلم (2677).
(5) سقطت هنا عبارةٌ ـ أو كلمة ـ من النُّسخة، فكتبتُ الكلمة بين القَوسين اجتهادًا منِّي.

لقوله: «مَنْ أحصاها»، كما يُقال: عندي مائةُ غلام أعْدَدتُهم للجهاد، وهذا قولُ الأكثرين، كالخطّابي[6] وغيره، وقد قيل: إنّه ليس لله إلاّ تسعةٌ وتسعون اسمًا، وهو قولُ ابن حَزْم[7].

ومنها: أنَّ في الحديث تنبيهًا على أصْلَي الصِّفات والقدَر، والتَّوحيد والعَدْل، وأنَّ قولَه: «بكلِّ اسم هو لك، سَمَّيْتَ به نفسَك» دليلٌ على أنَّه سبحانه يسمِّي نفسَه بأسمائه، ليسَت مخلوقةً من صُنع الآدميِّين.

وكذلك قوله: «أو استأثرت به في علم الغيب عندك» دليلٌ على أنَّ من أسمائه ما لا يعلمُه غيرُه، وهذا يدلُّ على تكلُّمِه هو بأسمائه، واختصاصه بذلك.

وعند الجَهْمِيَّة القائلين بخَلْق القُرآن: لا يقومُ به كلامٌ ولا يتكلَّمُ، بل إذا خاطبَ غيرَه خلقَ في الهواء كلامًا، فلا يُتَصَوَّرُ عندهم أن يكون له كلامٌ اختصَّ به عن إسْماعِ المخلوقين، ولهذا كان قولُه أيضاً: «مَنْ ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي»[8] حجّةً عليهم أيضًا.

وقولُه: «أو أنزلتَه»، «أو علَّمْتَه»، «أو استأثَرْتَ به» هو تفصيلٌ لما سَمَّى به نفسَه، فإنَّ ما سمَّى به نفسَه إمَّا أن يُعلِّمَه أحدًا بخطاب أو كتاب، أو لا يُعلِّمُه أحدًا بل يستأثرُ به في علم الغَيب عنده، وإن كانَ الحديثُ بلفظ [و][9]، فإنَّ [و] حرفُ عطف، والعطفُ قد يكون للخاصِّ على العامِّ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: 7]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: 98]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: 8].

وقولُه: «ربيع قلْبي»: الرَّبيع: هو المطر الَّذي يُنبتُ ربيعَ الأرض، فسأل أن يجعلَ القُرآنَ ماءً ونورًا لقلبه، فيُحيِي به قلبَه كما يُحيِي الأرضَ بوابل السَّماء، ويُنوِّرُ الله به قلبَه، والحياةُ والنُّورُ جماعُ الخير، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: 122]، ولهذا ضرب الله مثلَ الإيمان بالماء والنَّار في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ الآية، [الرعد: 17]، وضربَ مثلَ المنافقين بماء انطفأ ضَوْؤه وبالصَّيِّب الَّذي فيه رعدٌ وبَرْقٌ فقال: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية، [سورة البقرة].

ثمَّ لَمَّا ذكر تَحْصيلَ الخَير ذكرَ رفعَ الشَّرِّ فقال: «وجَلاء حُزْني، وذهابَ هَمِّي وغَمِّي»، والفرقُ بينهما أنَّ الحُزْن يتعلَّقُ بالماضي، والهَمَّ يتعلَّقُ بالمستقبل، والغَمَّ يتعلَّقُ بالحاضر.

وقولُه: «ماض فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك» ردٌّ على طائفتَي المعتزلة والجَهْمِيَّة، ويدخلُ في ذلك القَدَريَّةُ ومَنْ غلا من أهل الإثبات المُجْبِرَة ونحوهم، فإنَّ القَدَريَّة تُنكرُ أنْ يَقدرَ الله على تغيير أعمالِ عباده أو هدايتهم أو إضلالهم، بل تُنكرُ أن يَقدرَ على ما به يهدي غيرَ ما خلق.

فقوله: «مَاض فيَّ حكمُك» اعترافٌ بنَفاذ حكم الله فيه، وأنّه ما شاء الله به فعَلَه لا مخرَجَ له عن حكمه، ومعلومٌ أنَّه لم يُرِدْ مجرَّدَ الأمر والنَّهي الشَّرعيَّيْن، فإنَّ العبدَ قد يُطيعُ تارةً ويَعصي أخرى، وإن كانت الطَّاعةُ واجبةً عليه؛ بل أراد الحكمَ القَدَريَّ الكَوْنيَّ الَّذي هو بكلماته التَّامَّات الَّتي لا يجاوزُهنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ، فهذا يُبيِّنُ أنَّ حكمَ اللهِ القَدَريَّ ماض في العباد، وهو ردٌّ على القَدَريَّة الَّذين لا يُنْفذُون له مشيئةً ولا يجعلون له على ذلك قدرةً.

ثمَّ قولُه بعد ذلك: «عدلٌ فيَّ قضاؤك» دليلٌ على أنَّ الله عادلٌ فيما يفعلُه بالعَبد من القَضاء كلِّه خيرِه وشرِّه حُلْوِه ومُرِّه.

فجمعَ في الحديث الإيمانَ بالقدر، والإيمانَ بأنَّ الله عادلٌ فيما قضاه، وهذا ردٌّ على الطَّائفتين.

أمَّا القَدَريَّةُ فعندَهم: لو كان حكمُه فيه ماضيًا لكان ظالماً له بإضلاله وعقوبته.

وأمَّا أندادُهم من الجَبْريَّة ونحوهم فيقولون: الظُّلمُ لا حقيقةَ له، بل هو الممتنعُ الذي لا يدخلُ تحت القدرة، فلا يقدرُ الله عندهم على ما يسمَّى ظُلماً حتى يقالَ ترك الظُّلمَ وفعلَ العدلَ، فيكون قولُه: «عدلٌ فيَّ قضائك» كلامًا لا فائدة فيه عندهم، بل هو بمنزلة ماض فيَّ حكمك، ولا يكون سبحانه ممدوحًا بفعل العَدل.

والحديثُ دليلٌ على الثناء على الله بأنَّه مع كمال قُدرته فإنَّه عادلٌ في قضائه، كما قال: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن: 1]، فهو له الملك وله الحمد، ولهذا كان مستحقًّا للحمد على كلِّ حالٍ.

(6) انظر كلامَه في «إعلام الحديث في شرح صحيح البخاري» (689.688/2)، و«غريب الحديث» (730/1).

(7) انظر: «الفصل في الملل والأهواء والنحل». طبعة دار المعرفة (165/2).

(8) قطعة من حديث قدسي أخرجه البخاري (7405)، ومسلم (2675).

(9) في الأصل «أو» وكذا التي بعدها، والسياق يقتضي المثبت.

ولو كان الظُّلمُ عبارةً عمَّا لا يَقدرُ عليه لم يُمدَحْ ويُثْنَى عليه بترك ما لا يقدرُ عليه، كما لا يُقال: لك الحمدُ إذْ لم تخلقْ مثلَ نفسك، ولك الحمدُ إذْ لم تعدمْ ذاتَك.

والمُجْبِرَةُ عندهم تركُه للظلم من هذا الباب، وعدلُه هو مجرّدُ الخلق، فيكون قوله: «عدلٌ فيَّ قضاؤك» عندهم أي: موجودٌ فيَّ قضاؤك، أو ثابتٌ فيَّ قضاؤك، وهذا معنى قوله: «ماضٍ فيَّ حكمك».

فعُلِمَ أنَّ مُضيَّ حكمه يعودُ إلى قُدرته ونفاذ مشيئته، وعدلُه في قضائه يعودُ إلى أنَّه يشاءُ ويختارُ ما هو عدلٌ لا ما هو ظلمٌ، وأنَّه لا يشاءُ أن يَظلِمَ، ولا يريدُ ذلك ولا يختارُه، وهو محمودٌ على ذلك، وإنْ كان لو شاءَ لكانَ قادرًا عليه، كما لا يشاءُ ما أخبرَ أنَّه لا يكونُ، وعُلِمَ أنَّه لا يكونُ وإن كان قادرًا عليه، كما أخبر في غير موضع من كتابه أنّه لو شاءَ لفعلَ غيرَ ما فعلَ، وقال تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴾ [القيامة: 4]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾ [المؤمنون: 18]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام: 65]، ومنها أمران لا يكونان وهو العذابُ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما ثبت في الصَّحيح عن النَّبيِّ ﷺ: أنَّه قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ فقال: «أعوذُ بوجهك»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فقال: «أعوذُ بوجهك»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ فقال: «هاتان أهْوَنُ»[10].

والحكمُ هو الأمرُ، وهو أمرُ التكوين، فمعناه هو موجودُ المأمورِ به الذي قيل له كُنْ فيكون.

وأمَّا القضاءُ فهو الإكمالُ والإتمامُ، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: 12]، وقال الشاعر[11]:

وعليهما مسرودتَان قضاهما
داود أو صنع السَّوابغ تُبَّعُ

وذلك هو كمالُ الوجودِ المخلوق، فلابدَّ من كونه واقعًا على العَدْل، كما قال: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾ [الانفطار:7].

وفرَّق ﷺ بين لفْظَي القضاء والحكم، ووصف الحكمَ بالنَّفاذ، والقَضاءَ بالعَدْل؛ لأنَّ القضاءَ هو الإكمالُ والإتمامُ لما يَخلقُه، فوصفَه بأنَّه بعد كماله وتمامه عدلٌ لا يَظلمُ فيه، وأمَّا الحكمُ فهو مَبْدَأُ التَّكوين، مثل كونه يقول للشَّيء كُنْ فيكون، فهذا إذا كان نافذًا لا يَردُّه شيءٌ كانَ دالاًّ على كمال القُدرة، فوصَفه بكمال القُدرة وكمال العَدْل، فإنَّ العدلَ شاملٌ لكلّ ما خَلَقَه، والقُدرةَ متناوِلَةٌ لكلِّ ما شاءَه، ووصف العَدْلَ بالتَّمام والكمال؛ لأنَّ العَدْلَ المطلوبَ هو الغايةُ والنِّهايةُ، فكلا الأمرين-القضاء، والعدل-يتعلَّقُ بالنِّهاية والعلَّة الغائيَّة، وهما متعلِّقان بإلهيَّته تعالى، وأمَّا الحكمُ فهو نَفاذُ مشيئته، فهذا متعلِّقٌ بقدرته وهذا متعلِّقٌ بربوبيّته.

فدلَّ الحديثُ على كماله في ربوبيَّته وأنَّه له الملكُ كلُّه، وعلى كماله في إلهيَّته وأنّه له الحمدُ كلُّه، وأنَّ إلهيَّته متضمِّنَةٌ لربوبيَّته، كما أنَّ ربوبيَّتَه مستلزِمَةٌ لإلهيَّته، كما أنَّ قضاءَه متضمِّنٌ لحكمته، كما أنَّ حُكمَه مستلزِمٌ لقضائه.

ولمَّا كانت الإلهيَّةُ متضمِّنَةً للرُّبوبيَّة كانَ اسمُه الَّذي هُو الله مقدَّمًا على الاسم الَّذي هو الرَّبّ، وكان بذلكَ الاسم[12] يُذْكَرُ ويُثْنَى عليه ويُسَبَّحُ ويُحْمَدُ ويُكَبَّرُ في الصَّلوات والأذان وغير ذلكَ، ولهذا كان سُبحانه يقرنُ بين اسْمَي القُدرة والحكمة، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[13]﴾ [ابراهيم: 4]، وقوله: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: 63]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ[14] رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40]، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ[15] ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان: 26].

والعِزَّةُ خُصوصٌ في القُدرة، كما أنَّ الحكمةَ خُصوصٌ في الإرادة والكلام، وهو متضمِّنٌ للعلم، ولا يكونُ حكيماً إلا مَنْ أراد ما ينبغي أنْ يُراد، لا مَنْ كان يستوي عنده إرادةُ كلِّ شيء، ولا يكونُ حكيمًا إلاَّ مَنْ أمرَ بما ينبغي أن يُؤمَرَ به ونهى عمَّا ينبغي أن يُنهَى عنه، لا مَنْ كان يستَوي عنده الأمرُ بكلِّ شيءٍ والنَّهيُ عن كلِّ شيءٍ، كما لا يوصَفُ بأنَّه حكيمٌ إلاَّ مَنْ كانَ صادقًا في خبره، لا مَنْ يستوي عنده الإخبارُ بالصِّدق والكذب.

والعَزيزُ: من العِزَّة، والعربُ تقول: عَزَّ يعَزُّ-بالفتح-إذا صَلُب، وعَزَّ يعِزُّ-بالكسر-إذا امتنعَ من غيره، وعَزَّ يَعُزُّ-بالضَّمِّ-إذا غلَبَ غيرَه، كقوله: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: 23]، فأقوى الحركات لأقوى المعاني وهو الضَّمّ، وأوسطُها لأوسطها وهو الكسر، وأخَفُّها لأخفِّها وهو الفَتح وهو الأخَفّ وهو قولهم: عَزَّ يعَزُّ-بالفَتح-يتضمَّنُ القُدرةَ، فكيفَ بالثَّاني والثَّالث، والله أعلم.

آخر ما وُجد منها بخطِّ الشَّيخ رحمه الله تعالى، والحمد لله ربِّ العَالمين وصلواته على خير خلقه محمَّد وآله وصحبه.

---

(10) أخرجه البخاري (7313) وغيره.

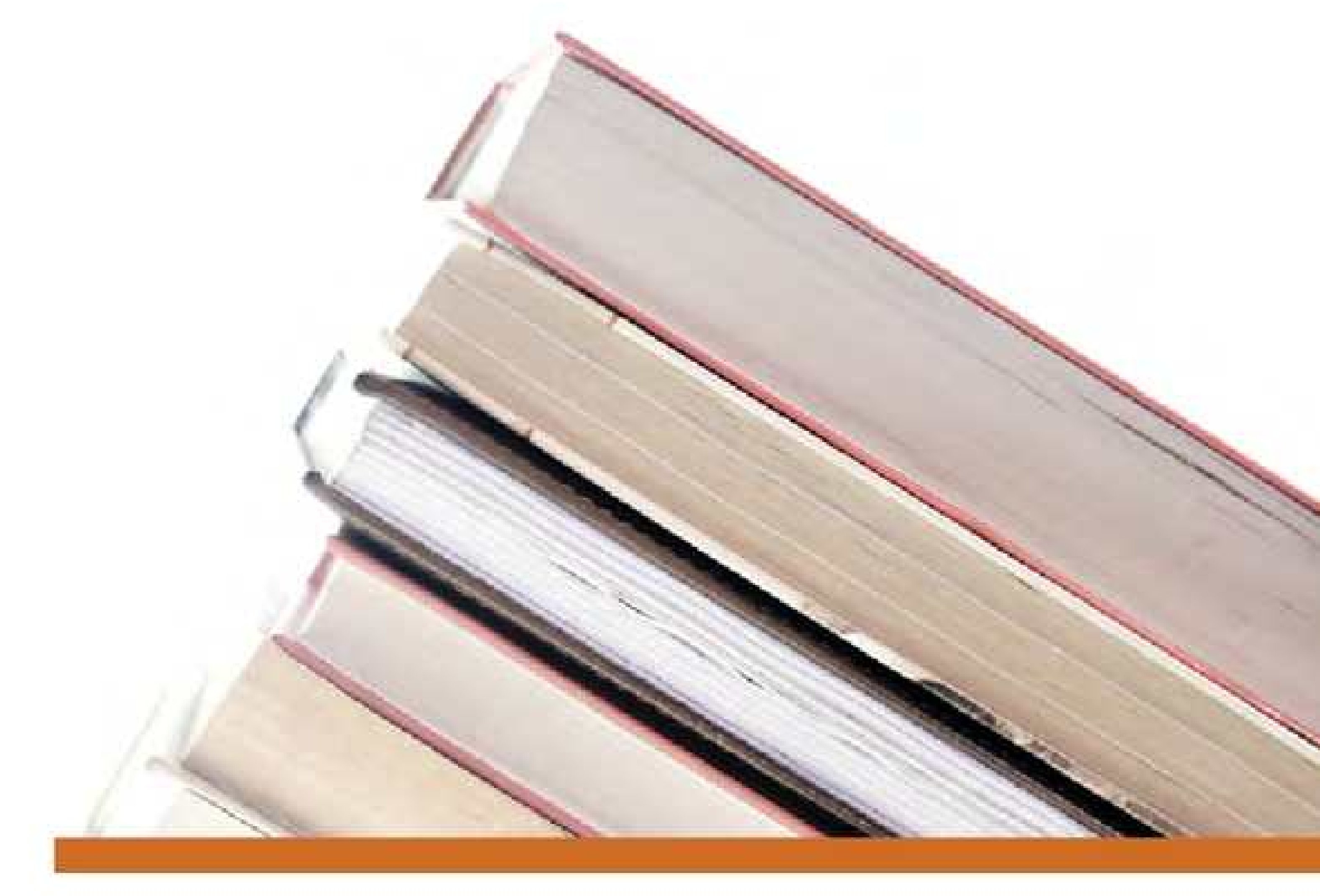
(11) البيت لأبي ذؤيب «ديوانُه» (ص: 19)، وهُو من قصيدة له يَرثي بها أولادَه حين ماتوا في الطَّاعون.

(12) يعني: اسمه الله.

(13) كُتبت في النُّسخة: وهو العَزيز الحميد؛ ولم ترد هكذا في القرآن الكريم، ولعلَّها خطأ من النَّاسخ.

(14) الفاء لم تُكتب في النُّسخة.

(15) كُتبت في النُّسخة بالواو.



لقد باع صاحبي مكتبته!

ابراهيم بن حليمة
إمام خطيب. الجزائر العاصمة

زرت يومًا أحدَ الأصدقاء الأوفياء، والإخوان الأصفياء ممَّن أَحَبَّ العلم واشتهاه وطلبه وابتغاه حتَّى صار سميره وهجِّيراه، وقلَّ في النَّاس اليوم نظيره، ونَدُرَ بين المعادن معدنه، نحسبه كذلك والله حسيبه.

أدخلني صاحبي كالعادة إلى غرفة الضِّيافة، وكان العهد أن الدَّاخل إذا دخلها رأى ما يسرُّ ناظره ويُبهج خاطره من مكتبة جمعت ـ على صغرها ـ ما يسيل اللُّعاب ويسلي الألباب، من كتب يدلُّ تنوُّعها على حسن اختيار، وحصافة عقل، وجمال ذوق، ومعرفة جيِّدة بالكتب، تخيَّرها على مرِّ السِّنين وتوالي الأيَّام، وتبيَّنها من بين الألوف وهي محجوبة عن الأنظار، وراح يقطفها كقطف الصَّبيِّ للأزهار، فرحًا بها يرى فيها سعادته، وهي تَعكِس على وجه أوراقها ابتسامته، يحادثها وتحادثه، يناجيها فتبادله، وصارت منذ اقتناها لا تفارقه، وكلُّ يوم ينقضي تترك في صفحات فؤاده أثرًا لا يكاد يمّحي.

تَمَتَّعَ دهْرًا بأيَّامها وليلاتها ناعمًا قد ثَمِلْ
يراها على بُؤسه جنَّةً تدلَّت بأثمارها، فاستظل
تُصَاحِبُهُ في هجير القِفَار، وفي ظُلَم اللَّيل أنَّى نَزَلْ(1)

نعم يا صاح، إنَّها الكتب.

فنِعْم الصَّديق، ونِعْم الخَليلُ ونِعْم الأنيسُ.. ونِعْم البدَلْ
صديق صداقتها حُرَّةٌ، وخِلٌّ خِلالتها لاتُمَلْ

وطالب العلم ـ أيُّها الحبيب ـ للَّذي يحسن ما يقتني من الكتب وليس المكثر من جمعها.

إلاَّ أنَّ الَّذي لفت انتباهي في زيارتي هذه وأنا أدخل غرفة الضِّيافة أنَّني لم أر المكتبة مكانها، والشَّيءُ الجميل حينما يغيب عن الأنظار يفتقد، فسألت صاحبي عن منتزهه الَّذي يتنزَّه فيه، ومستراحه الَّذي يستريح في أرجائه، أين هو فإنِّي لا أراه مكانه؟ وحسبت أنَّ جوابه سيكون ـ مَثَلاً ـ: لقد غيَّرتُ ترتيب الأثاث في البيت ونقلتُ المكتبة إلى الغرفة المجاورة، أو شيئًا من جواب يشبه

(1) من قصيدة للشَّيخ الأديب محمود محمَّد شاكر رحمه الله الموسومة بـ«القوس العذراء»، وقد طبعت ضمن «مجلة الأدب الإسلامي»، المجلد الرابع ـ العدد السَّادس عشر، (ص 70 ـ فما بعدها).
وما يكون ـ بعدُ ـ من شرح غريب مصاحبٍ لأبيات أوردها من القصيدة؛ فهو لصاحب القصيد نفسه.

هذا الجواب، فأجابني صاحبي ـ كعادته ـ بابتسامة، والابتسامة لا تكاد تفارق مُحيَّاه مُذ عرفتُه، لكنَّها اليوم ليست بالابتسامة الَّتي عهدتها منه، وكأنَّها تحمل خبرًا وراءها، فقلت في نفسي: إنَّ وراء الابتسامة ما وراءها! والمرء إذا خبَرْتَه وعايشتَه تكاد تعرف ما يخفي عنك من خلال تقاسيم وجهه ونظرات عينيه وحركات جوارحه، لكنِّي لم أكتف من صاحبي بالابتسامة، ولم أرتض بها جوابًا، فإنَّ في داخلي شيئًا يقلقني لا أعرف ما هو غير أنِّي أحسُّ به، وكثرت في ذهني الظُّنون وتزاحمت في صدري الشُّكوك، وأنا في ذلك كلِّه أواسي نفسي وأسلِّيها، وأعلِّلها وأداريها، عَلَّها تسمع من صاحبي جوابًا يرضيها ويشفيها، بيد أنَّه لم يفعل، وصدقت أحاسيسي وظنوني، وأجابني بجواب وقع على قلبي كالحسام المهنَّد شقَّه نصفين، مع أنَّه كان يجول مِثْلُه في خاطري.. قال ـ وياليتني ما سمعت جوابه ـ: لقد بعتُها!

ويحك! بعتَ ماذا يا رجل؟!

بعتُ المكتبة!!

قالها بنفس مطمئنَّة غير أنَّها تحمل في داخلها الأسى والحُزن، قالها بلسان صادق إلاَّ أنِّي أحسُّ ـ وهو يصنع الكلمات ـ كأنَّه يلعق العلقم من مرارة ما قال، قالها بعيون مترقرقة عليها سيما الابتسامة؛ بيد أنَّ ترقرقها هذا من دموع تماسكت بين الأجفان واستحيت أن تغادرها، كاستحياء البِكر تغادر خدرها، ولولا الحياء لناح صاحبي نوح الثَّكلى تبكي طفلها.

وكأنِّي بكتبه الَّتي ألفَتْهُ وألِفها، وما كانت تظنُّ يومًا أنَّها ستعيش غائبة عنه بعيدة منه، كأنِّي بها يوم باعها:

دَعَتْ: يا خليليَ! ماذا فَعَلْتَ؟! أأَسْلَمْتَني؟! لِسِوَاكَ الهَبَلْ[2]

وكأنِّي به وهو يتردَّد في بيع كتبه، يقدم رجلاً ويؤخِّر أخرى، ثمَّ استقرَّ قراره على بيعها وفراقها، كحال صاحب القوس العذراء الَّذي حلَّ به ما حلَّ بصاحبي، فباع قوسه النَّفيسة ثمَّ جهش بالبكاء على صنيعه!

أجلْ.. لا .. أجلْ بعتُها! بعتُها!.. أجل بعتُها! بعتُها!.. لا.. أَجَلْ
وفاضَتْ دُمُوعٌ كمِثْلِ الحَمِيمِ، لَذَّاعَةٌ نَارُهـا تَسْتَهِلْ
بُكاءٌ مِنَ الجَمْرِ جَمْرِ القُلُوبِ، أَرْسَلَهَا لاَعِجٌ مِنْ خَبَلْ
وغَامَتْ بعَيْنَيْه، واسْتَنْزَفَتْ دَمَ القَلْبِ يَهْطِلُ فِيمَا هَطَلْ
وخـانِقَـةٌ ذَبَـحَـتْ صَـوْتَـهُ، وَهِيضَ اللِّسَانُ لها واعْتقلْ
وأغْضَى عَلَى ذِلَّـةٍ مُطْرِقًا، عَلَيْهِ مِنَ الهمِّ مثلُ الجبَلْ
أَقَامَ... وَمَا إِنْ بِهِ مِن حَرَاكٍ، تخاذَلُ أَعْضَاؤُهُ كالأَشَلّ

لم أملك من الكلام ـ حينما سمعت الجواب ـ إلاَّ الحوقلة والاسترجاع على ما حلَّ بصديقي من فاقرة[3].

وحينها ذكَّرني صاحبي بقصَّة أبي الحسن الفالي الَّذي أنِس بـ«الجمهرة» لابن دريد عشرين حولاً ثمَّ باعها، ودونكم قصَّته:

«حكى الخطيب أبو زكرياء يحيى بن علي التَّبريزي اللُّغوي، أنَّ أبا الحسن علي بن أحمد ابن علي بن سلك الفالي الأديب، كانت له نسخة بكتاب «الجمهرة» لابن دريد في غاية الجودة، فدعته الحاجة إلى بيعها فباعها واشتراها الشَّريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستِّين دينارًا، وتصفَّحها فوجد بها أبياتًا بخطِّ بائعها أبي الحسن الفالي وهي:

أنِست بها عشرين حولاً وبعتها
لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظنِّي أنَّني سأبيعها
ولو خلَّدتني في السُّجون ديوني
ولكن لضعفٍ وافتقارٍ وصبيةٍ
صغارٍ عليهم تَسْتَهِلُّ شؤوني
فقلت ولم أملك سوابق عبرةٍ
مقالةَ مَكْوِيِّ الفؤاد حزين
وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك
كرائم من رب بهن ضنين[4]

في «معجم الأدباء»: «فترجَّع وقال: لو رأيتها قبل هذا لرددتها عليه، وكان الفالي قد مات».

أيُّها السَّادة! لعلَّكم لا تعلمون منزلة الكتب عند صاحبها وقيمتها عند طالبها! إنَّ أغلى متاع وأنفس ملك عند طالب العلم هو كتبه وقماطره؟! يُفقر نفسه لجلبها، ويتحمَّل قسوة البرد وألم

(2) والهَبَلُ ثكل الولد.

(3) الفاقرة هي الدَّاهية، كأنَّها تحطم فقار الظَّهر، كما يقال: قاصمة الظَّهر، انظر «اللِّسان».

(4) «وفيات الأعيان» (316/3)، «السير» للذهبي (55/18)، «معجم الأدباء» (1646/4).

الجوع ووجع الدَّاء ضنًّا منه بمال يدَّخره لشرائها، فإذا ما رأى كتابًا بين يديه؛ ابتهجت نفسه وقوي طبعه، وتسلَّى به عن المؤلمات من الجوع والبرد والمرض.

فهذا - أيُّها الأفاضل - حال عشَّاق الكتب؛ يرضون بأن تكون لهم الأرضُ وطاءً والسَّماءُ غطاءً وأنَّهم يجلسون ساعة مع الكتب يسامرونها وينادمونها، على حدِّ قول ابن الأعرابي:

لنا جلساء ما نملّ حديثهم
ألبّاء مأمونون غيبًا ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى
وعقلاً وتأديبًا ورأيًا مسددا
فلا فتنة نخشى ولا سوء عشرة
ولا نتقي منهم لسانًا ولا يدا
فإن قلت أموات فما أنت كاذب
وإن قلت أحياء فلست مفندا

وكأنِّي بصوت خافت يهتف من بين السُّطور في أذني يهمس سائلاً: ولم باع صاحبك كتبه؟

إي والله! إنَّه لسؤال حقيق بالذِّكر؛ لم باع صاحبي مكتبته؟

إنَّ صاحبي لم يبع مكتبته لرغبة عنها وزهد فيها، وكيف يزهد القَرِم[5] في قطعة لحم جاءته بعد شوق شديد؟!

ولم يبع صاحبي مكتبته لاستغناء عنها، وقد أشبع نهمته منها؛ فطالب العلم كلَّما قرأ كتابًا زاد حبُّه له وتعلُّقه به، وهل للمتيَّم سلوى عن محبوبه؟

بل باع صاحبي كتبه لقلَّة ذات يد أصابته، فقد وقف صاحب الدَّار الَّذي أجَّرها له على الباب يريد أجرة العام الموالي، فهو يطرق الباب في كلِّ وقت وحين لا يستطيع الانتظار ولا الإنظار، فإمَّا أن يدفع صاحبي أجرة الدَّار، وإمَّا أن يُخلي البيت ويغادر مع أولاده غير مأسوف عليه، فالطَّلب على التَّأجير كثير.

وليس لصاحبي أثاث في المنزل ثمين حتَّى يبيعه ويحفظ على نفسه وأولاده استقرارهم في هذا البيت الَّذي ألِفوه وألِفهم وعُرِفُوا به و عُرِفَ بهم.

إنَّه ثمن تأجير عام بكامله، وقدره حوالي عشرة ملايين سنتيم، أي ما يعادل ثمن عشاء بعض الأغنياء المترفين في ليلة أو ليلتين، من أين لصاحبي المسكين هذا المبلغ كلِّه؟!

وليس له بعد طول التَّفكير سوى هذا التَّدبير؛ يبيع كتبه ويحفظ على نفسه وعياله استقرارهم لهذا العام، والله أعلم بما سيكون في العام المقبل.

وأَدَعُكم تتصوَّرون حال رجل عشِق الكتب وأنِس بها ردحًا من الزَّمن ثمَّ باعها.

فهذه لمحة خاطفة عن يوميَّات طالب علم أهديها لكم، والسَّلام.

(5) القرم شدَّة شهوة اللَّحم.



الأسس الشَّرعيَّة لتربيَّة الأولاد

فريد عزوق
مرحلة الدكتوراه الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

إنَّ من المسؤوليَّات الَّتي أناطها الشَّرع بالآباء: تربية أبنائهم تربية صالحة حتَّى ينشؤوا نشأةً سليمة من الانحرافات الفكريَّة والسُّلوكيَّة ومتوافقة مع الفطرة ومؤسَّسة على الكتاب والسُّنَّة.

ولقد اعتنى العلماء السَّابقون بالتَّأليف في هذا المجال، فأفردوا مصنَّفات لبيان ما يجب على الآباء تجاه أبنائهم، فمن ذلك كتاب «تحفة المودود في أحكام المولود» لابن القيِّم رحمه الله، وكتب آخرون وصايا لأبنائهم أكَّدوا لهم فيها ما يجب فعله وما ينبغي تركه مثل وصية أبي الوليد الباجي رحمه الله لولديه.

وهذا يدلُّ على واجب الاهتمام بفئة الأولاد الَّتي ينبني عليها استقامة الشَّباب وصلاحهم.

وإدراكًا منَّا بأنَّ الواقع الأسري يلحظ ضعفًا في الحسِّ التَّربوي لدى فئة من الآباء، قد خصَّصنا لهذا الرُّكن من المجلَّة سلسلة من المقالات تعنى بتأصيل المنهج التَّربوي لرعاية الأولاد القائم على الكتاب والسُّنَّة وتوجيهات العلماء، وبالله التَّوفيق.

الأساس الأوَّل
الاستعانة بالله على تربيتهم والدُّعاء لهم بالصَّلاح

من المقرَّر لدى أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ أيَّة طاعة يريدها المسلم تتوقَّف على توفيق الله تعالى وفضله، هذا كان لسان حال بعض أنبيائه كما قال تعالى عن نبيِّه شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: 88]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: 5].

وتربية الأولاد على الاستقامة من الطَّاعات المفتقرة إلى توفيق الله تعالى ورعايته وحفظه.

ولقد كان السَّلف يقولون: «الصَّلاح من الله والأدب من الآباء»(1)، وهذا مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ﴾ [الأنبياء: 90].

(1) البخاري: «الأدب المفرد» (92)، وقال الألباني: «إسناده ضعيف».

وقد تمثَّل الأنبياء هذا الأصل وبنوا تربية أولادهم على ذلك الأساس، قال الله تعالى عن زكرياء: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38].

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ﴾، أي: ولدًا صالحا(2)، وهذا الذي ينبغي على المسلم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ﴾، أي: وأصلح لي أموري في ذرِّيَّتي الَّذين وهبتهم، بأن تجعلهم هداة للإيمان بك، واتِّباع مرضاتك، والعمل بطاعتك(3).

ولو كان الصَّلاح بيد الآباء لما أغرق الله تعالى ابن نوح مع المغرقين، بل قال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: 46]، أي ليس من أهلك الَّذين وعدتك بإنجائهم؛ لأنَّه غير صالح فلا يستحقُّ النَّجاة.

وفيه دليل أنَّ الأب مطالب شرعًا بالاستعانة بالله تعالى وطلب التَّوفيق منه أن يهديه وأن يهدي أبناءه لكلِّ

(2) «تفسير ابن كثير» (37/2).
(3) «تفسير الطَّبري» (115/22).

خير وطاعة، فإذا كان مأمورًا بأداء الصَّلاة هو وأسرته كما في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:132].

فالواجب أن يستمدَّ ـ وأهله ـ العَوْنَ من الله على إقامتها، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم: 40]، والمعنى[4]: ربِّ اجعلني مؤدِّيًا ما ألزمتني من فريضتك الَّتي فرضتها عليَّ من الصَّلاة، ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي: واجعل ـ أيضًا ـ من ذرِّيَّتي مقيمي الصَّلاة لك، ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ أي: ربَّنا وتقبَّل عملي الَّذي أعمله لك وعبادتي إيَّاك.

والواجب كذلك أن يُكثر الدُّعاء لأبنائه بأن يكونوا من أوليائه، والدُّعاء لهم نوعان:

دعاء عامٌّ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان: 74].

والمعنى كما قال ابن كثير: «يعني: الَّذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم وذرِّيَّاتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له، قال ابن عبَّاس: يعنون من يعمل بالطَّاعة، فتقرُّ به أعينهم في الدُّنيا والآخرة، وقال عكرمة: لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالاً ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين، وقال الحسن البصري ـ وسئل عن هذه الآية ـ فقال: أن يُري الله العبد المسلم من زوجته، ومن أخيه، ومن حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أقرّ لعين المسلم من أن يرى ولدًا، أو ولد ولد، أو أخًا، أو حميمًا مطيعا لله عزَّ وجل، وقال ابن جُرَيْج في قوله: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ قال: يعبدونك ويحسنون عبادتك، ولا يجرُّون علينا الجرائر، وقال عبد الرَّحمن بن زيد ابن أسلم: يعني: يسألون الله لأزواجهم وذرِّيَّاتهم أن يهديهم للإسلام»[5].

دعاء خاصٌّ، ومن ذلك:

ـ عند إتيان الزَّوجة، كما في قوله ﷺ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا»[6]، والمعنى: «أي: أبعدنا عنه، فلا يشاركنا، ولا يحضرنا، «وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا» أي: أبْعد الشَّيطان عن الرِّزق الَّذي تقدِّره لنا من الولد في هذا الاتِّصال، ولا بدَّ من الصِّدق في ذلك من القلب، والرَّغبة، والإيمان، والثِّقة بما قاله الرَّسول ﷺ حتَّى يحصل الموعود، وهو عدم مضرَّة الشَّيطان للمولود[7]، والمقصود، ذكر الله تعالى عند مقاربة الزَّوجة، والاستعاذة به من الشَّيطان، أن يشاركه أو يحضره، أو يضرَّ المولود بحال من الأحوال»[8].

ـ عند التعويذ: كما ثبت عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: كان النَّبيُّ ﷺ: «يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا (بِهِمَا) إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لامَّةٍ»[9].

وفي التزام الدُّعاء للأبناء والبنات عمومًا وخصوصًا فوائد تربويَّة كثيرة منها:

ـ أنَّ من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن ألحَّ في الدُّعاء فذلك أحرى للإجابة، فإذا كان الشَّرع حذَّر من الدُّعاء على الأولاد خشية أن يصيبهم شيء من ذلك بإذن الله، فكذلك رغَّب في الدُّعاء لهم بالصَّلاح والفلاح مظنَّة تحقُّقهما بفضل الله تعالى.

ـ أنَّ في دعاء الوالد لأولاده دليلاً على استشعار المسؤوليَّة وعلى حاجته إلى عون الله تعالى، فكم من والد صالح لكن ابنه ضلَّ سواء السَّبيل، والله خير معين وخير مأمول.

ـ أنَّ التزام الدُّعاء للأولاد فيه مزيد إيمان ويقين بالله تعالى لكونه يستشعر عبوديَّته لربِّه وفقره بين يديه سبحانه وتعالى.

ـ أنَّ ذلك الدُّعاء ينفعه هو أوَّلا؛ لأنَّ صلاح الأبناء يعود عليه بالخير عاجلاً وآجلاً، فيهيِّئ الله تعالى له من أولاده الصَّالحين من يدعو له حتَّى وهو في قبره، والجزاء من جنس العمل.



(4) المرجع السَّابق (28/17).

(5) «تفسير ابن كثير» (132/6).

(6) البخاري (7396)، ومسلم (1434).

(7) استشكل ابن دقيق العيد حمل منع الضَّرر على العموم، وقال: «لأنَّنا لو حملناه على العموم، اقتضى ذلك أن يكون معصومًا من المعاصي كلِّها، وقد لا يتَّفق ذلك، ولابدَّ من وقوع ما أخبر به ﷺ».
وأحسن ما يقال في هذا المقام وأمثاله ما ذكره البسَّام في «تيسير العلام شرح عمدة الأحكام» (70/2)، باب عشرة النِّساء: «أنَّ الشَّارع جعل لكلِّ شيء أسبابًا وموانع، فإن وُجدَت الأسباب، وانتفت الموانع، وُجدَ المسبب الَّذي رتَّب عليه، وإن لم توجد الأسباب، أو وجدَت، ولكن حصلت معها الموانع، لم يقع، فهنا قد يُسَمي المجامع، ويستعيذ، ولكن توجد موانع تقتضي إبطال السَّبب أو ضعفه، فلا تحقَّق المطلوب وبهذا يندفع الإشكال الَّذي تحير فيه (تقي الدين ابن دقيق العيد) في هذه المسألة».

(8) الغنيمان: «شرح كتاب التَّوحيد من صحيح البخاري» (234/1).

(9) البخاري (3371).

ألفاظ ومفاهيم في الميزان

النِّبراس

في تصحيح كلام النَّاس

عمر الحاج مسعود

هـذه مجموعـةٌ جديـدةٌ مـن العبـارات المتفشِّيَّة بـين بنـي قومنـا، أسطِّرها في صفحاتِ مجلَّتنا، موضِّحًا لمعانيها، ومصحِّحًا لمراميها:

اللِّي تْرَبِّي ما تَعْرَفْشْ ربِّي

المقصود بهذه العبارة أنَّ المرأةَ المرضع والمربِّيةَ للأولاد تترك العبادةَ والصَّلاة والذِّكر، فهيَ مُعفاةٌ من ذلك، وهذَا المعنَى في غاية القُبح والفَساد؛ لأنَّ المؤمنَ ـ مهما كانَت أحواله ـ يعرف ربَّه ولا يجهلُه، ويذكرُه ولا ينسَاه، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحشر: 19]، ويعرفُه حالَ الرَّخاء وحالَ الشِّدَّة، قال رسول الله ﷺ: «تَعَرَّفْ إليه في الرَّخَاء يَعْرِفْكَ في الشِّدَّة»[(1)]، والَّذي لا يعرفُه هو الكافر والمنافق والغَافل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [التوبة: 67]، وقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف: 28].

نعم، المُرَبِّية تتعَب وتضعُف وتُشغَل، وربَّما تمرَض، لكن يبقى معها إيمانُها ومعرفتُها ربَّها، وتتَّقيه ما استطاعت، فتصلي وتصوم وتؤدي كلَّ العبادات ما لم يمنعها من ذلك مانع شرعي، كما أنَّ تأديب الأولاد والقيام بأعباء البيت وغيره أمور لا تمنع ذكر الله عزَّ وجلَّ وطاعتَه، بل ينبغي التَّوكُّل على الله والاستعانة به على ذلك، فعن عَليٍّ رضي الله عنه أنَّ فاطمةَ رضي الله عنها اشْتَكَتْ مَا تَلْقَى مِنَ الرَّحَى مِمَّا تَطْحَنُ فَبَلَغَهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِسَبْيٍ فَأَتَتْهُ تَسْأَلُهُ خَادِمًا...(قالت): فَأَتَانَا وَقَدْ دَخَلْنَا مَضَاجِعَنَا... فَقَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ، إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا فَكَبِّرَا الله أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ وَاحْمَدَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِينَ وَسَبِّحَا ثَلاَثًا وَثَلاَثِين، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمَا مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ»[(2)].

ففي هذا الحديث دليل على أنَّ الأذكار تُعطي قوَّةً تُعين على الخدمة أكثرَ ممَّا يقدر عليه الخادم[(3)].

قال ابن القيِّم: «إنَّ الذِّكر يُعطي الذَّاكر قوَّةً، حتَّى إنَّه ليفعل مع الذِّكر ما لم يُطق فعلَه بدونه، وقد شاهدتُ من قوَّة شيخ الإسلام ابن تيميَّة ـ قدَّس الله روحه ـ في مشيته وكلامه وإقدامه وكتابته أمرًا عجيبًا، فكان يكتبُ في اليوم من التَّصنيف ما يكتُبه النَّاسخ في جُمُعة أو أكثر، وقد شاهَد العسكرُ من قوَّته في الحرب أمرًا عظيمًا» ثمَّ ذكر

(1) رواه أحمد (2803)، وصحَّحه الألباني، انظر: «ظلال الجنَّة» (1/139).

(2) رواه البخاري (3113)، ومسلم (2727).

(3) انظر: «عمدة القَاري» للعيني (22/288).

الحديثَ السَّابق وقال: «فقيل: إنَّ مَن داوَمَ على ذلكَ وجَدَ قوَّةً في بدنه مُغْنيةً عن خادم»[4].

فلتحذر المربِّيةُ من أن تكونَ ممَّن شُغل بولده ودنياه عن أُخراه، وأضاع الصَّلاةَ واتَّبع الشَّهواتِ ونسيَ مولاه، فتكون منَ الخاسرين، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: 9].

وقد يكون المَثَل متعلقًا بالنُّفساء حيث إنَّها لا تصلِّي ولا تصوم حتَّى تطهُر وهذا حقٌّ، لكن ينبغي ـ مع ضعفها ومرضها ـ أن لا تنسى ربَّها ولا تغفل عن ذكره، والحيضُ والنِّفاسُ لا يمنعان من ذكر الله وقراءة الأدعية والأذكار المأثورة، مثل أذكار الصَّباح والمساء والنَّوم والاستيقاظ ونحوها، كما أنَّ الحائض والنُّفساء تحجَّان وتعتمران وتلبِّيان وتدعُوان، قال النَّبيُّ ﷺ لعائشة رضي الله عنها لَمَّا حاضَت في حَجَّة الوداع: «فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ كَتَبَهُ الله عَلَى بَنَاتِ آدَم، فَافْعَلِي مَا يَفْعَلُ الحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي»[5]، والحاجُّ يقرأ القُرآن، ويذكُر الله تعالى، ويسبِّحُه ويدعوه.

وكذلك الجنابةُ لا تمنع من ذكر الله عزَّ وجلَّ، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النَّبِيُّ ﷺ يَذْكُرُ اللهَ عَلَى كُلِّ أَحْيَانِه»[6].

هذا الحديث أصل في جواز ذكر الله تعالى ـ للجنب وغيره ـ بالتَّسبيح والتَّهليل والتَّكبير والتَّحميد وشبهها من الأذكار، وهذا بالإجماع، وإنَّما اختلفَ العُلماء في جواز قراءة القُرآن للجُنب والحَائض، والصَّحيحُ جوازُه لكن دون مسِّ المصحف[7].

والخُلاصة أنَّه ينبغي للحائض والنُّفساء والمُرضع والمربِّية أن يتَّقين الله حسب الاستطاعة، ويذكُرْنَه ولا ينسيْنَه حتَّى يكونَ معهنَّ ويُعينهن، قال النَّبيُّ ﷺ يقول الله تعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِه ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»[8].



ضُيُوف ربِّي

تقال هذه العبارة ترغيبًا في التَّرحيب بالضُّيوف وتحريضًا على إكرامهم، وهي صحيحةٌ إن كان المقصودُ أنَّهم ضيوفٌ من عند الله تعالى، وأنَّه هو الَّذي قدَّر أن يأتوا ويُساقوا إلى المُضيف، وأمَّا إنْ كان المقصودُ ـ وهو المتبادر ـ إضافتَهم إلى الرَّبِّ عزَّ وجلَّ تكريمًا وتشريفًا، ـ مثل: بيت الله، وناقة الله ـ فهذا فيه نظر، لاشتماله على تزكيتهم ووصفهم بالعدالة والشَّرف، وقد لا يكونون كذلك، وهُم في الحقيقة ضيوفُ صاحبِ البيت، ينسبون إليه، كما قال رسول الله ﷺ: «ومَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»[9].

ولعلَّهم يريدون بذلكَ أنَّ الله يباركُ لأهل بيتِ الأضياف، ويُكثر خيرَهم ويغفر ذنبَهم، لذا يقولون: «الضَّيف يأتي بخيره ورزقه»، أو نحو هذه العبارة، وأصل هذا أحاديثُ لا تصحُّ، منها: ما رواه ابن ماجه (3356) بسند ضعيف[10] عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «الخَيْرُ أَسْرَعُ إِلَى البَيْتِ الَّذِي يُغْشَى مِن الشَّفْرَةِ إِلَى سَنَامِ البَعِيرِ».

ومنها: ما أخرجه الدَّيلمي (267/2) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه مرفوعًا: «الضَّيفُ يأتي برزقه، ويَرْتَحِلُ بذُنُوب القَوْم»، وهو حديث موضوع، فيه إسحاق بن نجيح المَلَطي، وهو كذَّاب وضَّاع[11].

○○○

فائدتان:

الأولى: وَرَد أنَّ الحُجَّاج وَفْدُ الله وضيوفُه، قال رسولُ الله ﷺ: «وَفْدُ الله ثَلاثَةٌ: الغَازِي والحاجُّ والمُعْتَمِرُ»[12]، والوفدُ «هُم القَوْمُ يَجْتَمِعُون فَيَرِدُون

(4) «الوابل الصَّيِّب» (ص: 186.185).
(5) رواه البخاري (305)، ومسلم (1211).
(6) رواه مسلم (373).
(7) انظر: «الأوسط» لابن المنذر (103.100/2)، و«شرح مسلم» للنَّووي (68/4)، و«فتح الباري» لابن حجر (408/1)، و«نيل الأوطار» للشَّوكاني (283/1).
(8) رواه البخاري (7405)، ومسلم (2675).
(9) رواه البخاري (6018)، ومسلم (47).
(10) فيه جُبارَة بن المُغَلِّس وكثير بن سُلَيم، وهُما ضعيفان، كما في «التَّقريب».
(11) انظر: «ميزان الاعتدال» للذَّهبي (201.200/1)، و«الضَّعيفة» للألباني (63/6).
(12) رواه النَّسائي (2625)، وصحَّحه الألباني.

البلاد، واحدُهُم وافدٌ، وكذلك يَقْصِدون الأُمراءَ لِزيارَةٍ واسْتِرْفادٍ وانتجاع وغير ذلك»[13]، وهؤلاء بمعنى الضُّيوف، فالحُجَّاج والمعتمرون يَفِدون على الله تعالى ويطوفُون ببيته، ويسألونَه من فضله ويستَزيدونه من رحمته.

وكذلك إذا توضَّأ المرءُ، وقصد المسجدَ فهو ضيفُ الله، قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الوضوءَ ثُمَّ أَتَى المسجد فهو زائِرُ الله، وحَقٌّ عَلَى المَزورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ»[14]، وقال: «مَن غدا إلى المسْجِدِ أَوْ رَاحَ أَعَدَّ الله له في الجنَّة نُزُلاً كُلَّمَا غَدَا أَوْ راحَ»[15]، والنُّزُل ما يُعَدُّ للضَّيف عند قدومه، وهذا يدُلُّ على أنَّه ضيفُ الله جلَّ وعلا.

الثَّانية: قال الشَّيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «عون الله: هذا من التَّسميات الَّتي حَدَثت في الأُمَّة بعد اختلاطها بالأعجميِّين، وإلاَّ فالعَرب والمسلمون في صَدر الإسلام لا يعرفُون مثل هذه الأسمَاء المضافة: عون الله، ضيف الله، عَطا الله، قَسْم الله، عناية الله، غرم الله، خلف الله، وهكذا.

والنَّصيحة للمُسلم أن لا يسمِّي بها ابتداءً، لكن من سُمِّي بشيء منها فإن غيَّرها فهو مناسبٌ، وإن بقيَ وهو على معنى عون منَ الله فلا بأس، وإن كانَ بمعنى أنَّه هو عون الله، فهو كذب، والمعنى الأوَّل هو المتبادر»[16].

(13) «تاج العروس» (316/9).
(14) رواه الطَّبراني في «الكبير» (6139)، وحسَّنه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (322).
(15) رواه البخاري (662)، ومسلم (669).
(16) «معجم المناهي اللَّفظية» (401).



عَبَّاد الشمس

عَبَّاد الشمس: نباتٌ من الفَصيلة المركَّبة تتَّجه نَوْرَتُه إلى الشَّمس[17]، فهو يتْبَعُها شروقا وغروبًا، لذا سمَّوه بذلك، وهذا لا يجوز؛ لأنَّ فيه تعبيدًا لغَير الله تعالى.

إنَّ كلَّ ما خَلَق الله هو عبد من عبيده يحرُم تعبيدُه لغيره.

قال ابن حزم رحمه الله:

«واتَّفقُوا على تَحْريم كلِّ اسم معبَّدٍ لغير الله عزَّ وَجَلَّ، كَعبد العُزَّى وَعبد هُبل وعبد عَمْرٍو وعبد الكَعْبَة، وما أشبهَ ذَلك»[18].

فهذا النَّبات عبدٌ لله، وليسَ عبدًا للشَّمس[19]؛ فالأولى أن يسمَّى «دوَّار الشَّمس» كما يُطلق عليه في بعض الجهات.

ومعلوم أنَّ النَّبات والأشجار تسبِّح لله وتسجُد له.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: 44].

وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الحج: 18].

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما قال:

«جَاءَ رجلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فقال: يا رسُول الله! إِنِّي رَأَيْتُنِي اللَّيْلَةَ، وَأَنَا نَائِمٌ كَأَنِّي أُصَلِّي خَلْفَ شَجَرَةٍ، فَسَجَدتُّ، فَسَجَدت الشَّجَرَةُ لِسُجُودِي، فَسَمِعْتُهَا وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اكْتُبْ لي بِهَا عِنْدَكَ أَجْرًا، وَضَعْ عَنِّي بِهَا وِزْرًا، وَاجْعَلْهَا لي عِنْدَكَ ذُخْرًا، وَتَقَبَّلْهَا مِنِّي كَمَا تَقَبَّلْتَهَا مِنْ عَبْدِكَ دَاوُدَ»[20].



(17) «المعجم الوسيط» (579/2).
(18) «مراتب الإجماع» (ص: 154).
(19) انظر: «فتاوى ابن عثيمين» (118/3)، و«معجم المناهي اللَّفظيَّة» (374).
(20) رواه التِّرمذي (579)، وحسَّنه الألباني.

التحفة الشذية

في تيسير المنظومة المجرادية

شرح

عمارة بن أحمد قسوم الجزائري

تقريظ

محمد بن علي بوسلامة

حفظه الله تعالى

دار الفضيلة





إعداد: أسرة التحرير

العلم قبل العمل

▣ قال عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ اللهُ:

«ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضَّلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وربَّما اغترَّ به الجهَّال فسألوه فاغترَّ هو بنفسه فتكلَّم بما لا يعلم فضلَّ وأضلَّ».

[«آثار ابن باديس» (2/275)]

التعليم الناجح

▣ قال مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ:

وأي مُعلِّم لم ينتج تلاميذه عسل العرفان الَّذي فيه شفاء النَّاس فلا يرجع باللاَّئمة على نحله، وليفتِّش عن علَّة الخيبة في زهره، فإنَّما هو بين أمرين أهونهما أنَّ طريقته في التَّعليم عقيمة، وأدهاهما أنَّه مصاب في أدبه، مؤتزر بالأوزار، وهذا الثَّاني يجب إبعاده، وذلك يتعيَّن إرشاده».

[«آثار مبارك الميلي» (2/687)]

سلاح الحق

▣ قال محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ:

إنَّ القوَّة إذا لم يزنها العقل ضَعف، وإنَّ العلم إذا لم تحطه بالحكمة جهل، وإنَّ الملك إذا لم يحمه العدل زائل، وإنَّ سلاح الحقِّ من الحرير يفلُّ سلاح الباطل من الحديد».

[«عيون البصائر» (349)]

تعظيم الكتاب والسُّنَّة

▣ قال عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ:

«لا سعادة للعباد ولا هداية ولا نجاة في الدُّنيا والآخرة إلاَّ بتعظيم كتاب الله وسنَّة نبيِّه الأمين ﷺ اعتقادًا وقولاً وعملاً، والاستقامة على ذلك، والصَّبر عليه حتَّى الوفاة».

[«مجموع فتاوى» (2/139)]



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

▣ قال ابن القيم:

«سمعت شيخنا أبا العبَّاس بن تَيْمية رحمه الله يَقُول وَقد عرض لَهُ بعض الألم فَقَالَ لَهُ الطَّبيب أضر مَا عَلَيْك الكلام في العلم والفكر فيه والتَّوجُّه والذِّكر، فقال: ألستم تَزْعُمُونَ أنَّ النَّفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوَّة تعين بها الطَّبيعة على دفع العارض؛ فإنَّهُ عدوّها، فَإِذا قويت عليه قهرته؟! فقال له الطَّبيب: بلَى، فقال: إذا اشتغلت نفسي بالتَّوجُّه والذِّكر والكلام في العلم وظفرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك دفع العارض».

[«مفتاح دار السَّعادة» (2/170)]

▣ ▣ ▣

▣ «وحصولُ العلم في القلب كحصول الطَّعام في الجسم، فالجسم يُحِسُّ بالطَّعَام والشَّراب؛ وكذلك القلوبُ تُحِسُّ بمَا يتنزَّل إليها من العلوم الَّتي هي طعامها وشرابها».

[«مجموع الفتاوى» (4/41)]

▣ ▣ ▣

▣ «فالعبد دائمًا بين نعمة من الله يحتاج فيها إلى شكر، وذنب منه يحتاج فيه إلى الاستغفار، وكلٌّ من هذين من الأمور اللَّازمة للعبد دائمًا؛ فإنَّه لا يزال يتقلَّب في نِعَمِ اللهِ وآلائه ولا يزال محتاجًا إلى التَّوبة والاستغفار».

[«مجموع الفتاوى» (10/88)]

▣ ▣ ▣

▣ قال ابن القيِّم: «قال لي شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مرَّةً: العَوَارِضُ والمِحَنُ هي كالحرِّ والبرْدِ، فإذَا علم العبد أنَّه لابدَّ منهما لم يغضبْ لورودهما، ولم يغتمَّ لذلك ولم يحزنْ».

[«مدارج السالكين» (3/361)]

▣ ▣ ▣

▣ «والمقصود بالزُّهد ترك ما يضرُّ العبدَ في الآخرة، وبالعبادة فعْلُ ما ينفع في الآخرة، فإذا ترك الإنسان ما ينفعه في دينه وينفعه في آخرته وفَعَلَ من العبادة ما يضرُّ فقد اعتدى وأسرف، وإن ظنَّ ذلك زهدًا نافعًا وعبادةً نافعةً».

[«مجموع الفتاوى» (14/458)]

▣ ▣ ▣

▣ «المحبوس من حُبس قلبُه عن ربِّه، والمأسور من أسره هواه».

[«الوابل الصيب» (ص48)]

▣ ▣ ▣

▣ «الصَّبر الجميل هو الَّذي لا شكوى فيه ولا معه، والصَّفح الجميل هو الَّذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الَّذي لا أذى معه».

[«مدارج السالكين» (2/160)]

▣ ▣ ▣

▣ «والعبادة لله أن يجمع غاية الحبِّ له بغاية الذُّلِّ له، فكلُّ خير وكلُّ كمال ومقام وحالٍ قَرَّبَ إليه ونحوُ ذلك ممَّا يُحمَد من العبادِ ويُطْلب منهم ويُرضى لهم فهو داخلٌ في طاعة اللهِ ورسوله أو مستلزمٌ لذلك».

[«جامع المسائل» (4/40)]

▣ ▣ ▣

▣ «فالشَّيطان إذا زيَّن المعصية يجعل في القلب ظلمة، ويضعف نور الإيمان، ولهذا سمَّاه طائفًا، أي: يطيف بالقلب مثل ما يطيف الخيال بالنَّائم...

[«جامع المسائل» (5/256)]

▣ ▣ ▣



مشاركات القراء

أرسل إلينا الأخ المكرَّم مروان حاجو . وفقه الله . منذ عهد مقالاً أدبيًّا جميلاً بعنوان: (دموع الآثار)، ضمَّنه إعجابه الشَّديد بشخصيَّة البشير الإبراهيمي، وحُقَّ له ذلك، مبديًا في فقرات مقاله تأسُّفه وحزنه على هجر النَّاس لتلك الآثار الَّتي خلَّفها الشَّيخ رحمه الله، والَّتي حوت دُرَرًا ونفائسَ، وعلومًا وكنوزًا، وهي ما بين دفاع عن الإسلام والعربيَّة، وهوية الأمَّة، وبين إبرازٍ لدور (جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريين)، وما قامت به من جهود، كلُّ ذلك في روعة بيان، وجزالة ألفاظ، وتناسق أفكار، وحرارة دفاع، وقد أحسن صاحبه إذ سمَّاه (دموع الآثار)، نجتزئ منه للقارئ فقرات، فممَّا قاله:

«ومهما يكن من شيء فإنَّ هذه «الآثار» تشكو غربتها من خَلَف كجلد الأجرَب لا هو يقرأ ولا هو يهمس بذكرها ببنت شفة، غيرَ أنَّه مولع بالجرائد والمجلاَّت وسماعِ الأغاني والقينات، سماعًا لا يخرجه عن ظلمته وجبروته وقسوته، وبهذا بقيت هذه المعاني والآثار ضالَّة في حنايا المكاتب لا تسمع إلاَّ همس نفسها.

هذه بثَّة مصدور يشكو لوعته، وكلَّما عالج ما في قلبه من طيٍّ وكتمان فأراد البَوحَ عمَّا فيه حالت دون ذلك عقدة اللِّسان، ولكلِّ قلبٍ ضرب من الإيهام، وشكل من اللَّوعة، ونوع من التَّجلِّي، إن لم يكتب في القرطاس ظهر على صفحات الوجوه لا محالة، فهل أزيدك من الشِّعر بيتًا؟ ساعة أرى فؤادي يهفو كطفل يتدحرج في أكمام قميص طويل، كلَّما تمثَّل لي هذا الهاجس كفلقة قمر ليس دونه سحاب يراه السَّائر حيثما كان، وساعة أراه كطلٍّ يغسل ما ران على قلبي فحينها أستشرق أيهتف كبلبل لا يسعه إلاَّ أن يغرِّد طربًا بين أفنان التَّصابي، حتَّى إذا أخذني الحنين إليه بخفيٍّ من حنين تمثَّلت بين يديَّ «آثاره» كامتثال النُّجوم بين يدي سهيل، فأقتبس من قنديله نورًا أمشي به في النَّاس فأخلع عنِّي لباس الأماني وأرتدي مشتملاً بتنُّورة البشير، فإذا أنا كالأسد لا ينهنهني اللِّقاء، مقتحمًا بنفسي في لجَّة من الأنوار تدلَّت من «آثاره» كالسِّوار قاب قوسين أو أدنى، فتلاشت ظلمات الذِّكرى من طلوع سعده كالمنار، وتحدَّرت دموع الفرح انحدار السيل الجرَّار، فثمَّة تحنُّ النَّفس إلى منازلها الأولى من حيث أوقفها البلى، وترقُّ رقَّة المؤمن أيَّام الوحي المنزَّل، وهو في كلِّ ذلك يخفض جناحه المرسل، وإنَّ روحًا هذه شأنها لجدير بها أنَّها قد هُيِّئت لأمر عظيم وفي هذا يقول الشَّاعر:

قد هيَّئوك لأمر لو فطنت له

فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل»

وممَّا قاله أيضًا:

«وبحقٍّ لولا تصاريف الأقدار لكان كلُّ حيٍّ يحمل في حقيبته كتاب «الآثار»، وفي كنانته همَّ قراءته، ولكن ليت شعري من يعزِّيها وقد انتحرت بظلفها؟ تلك «الآثار» الَّتي ألقت في روعي ما يجري في عالم الأدباء والشُّعراء والدُّعاة والعلماء، يوم أن تسوَّر خلدي ريعانَ الشَّباب، وحينما كانت السَّعادة وحيَ القلوب وعنوانَ الحياة، فأذكرني ذلك كأجمل حلم رأته عينٌ مسهَدة حتَّى إذا انبجس الإصباح استيقظ الصَّبُّ على طيف، وإنَّه ليتضرَّج قلبي أسفًا وحديثي كلُّه تنهدات حين لا مجيب، فأقول في نفسي والأسى يغمرها من كلِّ جانب:

لعلَّ انحدار الدَّمع يعقب راحةً

من الوجد أو يشفي الجراحَ الَّتي بيَا

فحبُّك للشَّيء الَّذي لا تناله

جلا عنك آثار البشير بواكيا

لقد بُحتُ لك بما لوحيته بسمعك لجرح قلبَك وألفيت له كلومًا في فؤادك، وما أحوجنا إلى مستشفى ضغط الهمِّ وطبيب اعتلال القلب، وما هذا إلاَّ صدى فحسب فكن منه على بال، والله الموفِّق».

▪ ▪ ▪